تفريغ سلسلة

مقدمة في الولاء والبراء

للشيخ :
أبي عبد اللّه المهاجر

التحايا للإعلام الجهادي
قسم التفريغ
1436 هـ 2015 م

بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ الدورة الشرعية

[مقدمة في الولاء والبراء]

الشيخ / أبي عبد الله المهاجر (حفظه الله)

مُؤسَّسَة التَّحَايَا

قِسْمُ التَّفْرِيغِ وَالنَّشْرِ

مقدمة التفريغ:

تعريف مختصر بالشيخ أبي عبد الله المهاجر:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين محمد بن عبد الله أما بعد:

فيسرنا في مؤسسة التحايا للإعلام أن نقدم لكم هذا التفريغ للدورة الشرعية (مقدمة في الولاء والبراء) للشيخ أبي عبد الله المهاجر المصري عبد الرحمن العلي؛ والشيخ غني عن التعريف؛ هو من علماء الثغور ومن كبار علماء التيار الجهادي، جاهد في الجهاد الأفغاني الأول ثم بعد الفتنة بين الأحزاب الأفغانية توجّه نحو باكستان لطلب العلم فدرس في الجامعة الإسلامية بإسلام آباد، وحصل على الماجستير في الشريعة ولكنه لم يتمكن من إكمال الدكتوراة بسبب مطاردة السلطات الباكستانية له، فتوجّه نحو أفغانستان، وهناك افتتح معهدًا شرعيًا في خوست في معسكر خلدن الذي كان يقوده ابن الشيخ الليبي –رحمه الله– وأصبح المسؤول الشرعي للمعسكر، ثم درّس في المعهد الشرعي الذي افتتحه الشيخ الإمام أسامة بن لادن –رحمه الله– في قندهار والذي كان يديره الشيخ أبو حفص الموريتاني، واستفاد منه الشيخ الزرقاوي –رحمه الله– علميًا وكذلك استقدمه في تنظيم دورات علمية في معسكره في هيرات.

يقول الشيخ الشهيد أبو مصعب الزرقاوي –تقبله الله–: "التقيت بالشيخ أبي عبد الله المهاجر، وجرى حديث بيننا في حكم العمليات الاستشهادية، وكان الشيخ يذهب إلى جوازها، وقرأت له بحثًا نفيسًا في هذه المسألة، وسمعت له أشرطة مسجلة في ذلك، فشرح الله صدري لما ذهب إليه، ولم أتبنَّ جوازها فقط؛ بل بتُّ أرى استحبابها، وهذا والله من بركة العلم ولقاء أهله".

ويقول الشيخ محمد وائل حلواني (ميسرة الغريب) عضو اللجنة الشرعية لتنظيم القاعدة في بلاد الرافدين آنذاك في رسالته «الزرقاوي كما عرفته»: "كان شيخنا الزرقاوي يُحب شيخه أبا عبد الله المهاجر، ويُجِلُّه ويثني عليه، ويَوَدُّ لو يأتي إلى العراق، وكانت قرائنُ الحال تَدُلُّ أنه لو أتى لأُوكلت إليه مسؤولية الهيئة الشرعية، وذكر لي أنه درس عند الشيخ المهاجر أربع سنوات".

وكذلك ممن زكاه الشيخ المجاهد الدكتور أيمن الظواهري –حفظه الله– إذ يقول في كتابه (التبرئة) وهو يعدد العلماء الذين يأخذ منهم المجاهدين: "الشيخ أبو عبد الله المهاجر. من المهاجرين المرابطين المجاهدين. تخرج من الجامعة الإسلامية في إسلام آباد، ورابط في أفغانستان، وأنشأ مركزًا علميًا دعويًا في معسكر خلدن، ودرّس في مركز تعليم اللغة العربية في قندهار، ثم بين المجاهدين في كابل ثم في هيرات، وله كتاب عن مسائل الإيمان، لا يحضرني اسمه."

ويقول الشيخ أبي محمد المقدسي في سلسلة (ولكن كونوا ربانيين) في معرض ذكره للشيخ أبي عبد الله المهاجر: "وكذلك اتصل بي مرة أخرى الأخ أبومصعب، وكان معه الأخ أبوعبد الله المهاجر؛ وهو طالب علم مصري، تكلم معي طويلًا على التليفون. وذكر لي أن عنده، خطة عمل بحث أو كتاب، يوجه فيه مجموعة من الأسئلة، إلى رموز التيار السلفي الجهادي، ومشايخهم وعلمائهم؛ وأن هذه الأسئلة، سيبعث بنسخ منها إلى المشايخ، أبي قتادة وأيمن الظواهري وغيرهم ومنهم أنا؛ ليجيب كل شيخ على نفس الأسئلة، ثم يجمعها الشيخ أبي عبد الله المهاجر في كتاب؛ يعني لتمثل أفكار وتوجهات هذا التيار، كانت هذه فكرته؛ وبالفعل بعث لي بالأسئلة على الفاكس، وما زلت أحتفظ بصورة هذا الفاكس عندي. أرسل إليَّ هذه الأسئلة، وقدر الله إني اعتُقلت، بعد أن أرسل إليَّ هذه الأسئلة بقليل".

بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م ثم احتلال أفغانستان وسقوط الإمارة الإسلامية اضطر الشيخ للانحياز إلى إيران مع من انحاز إليها؛ وهناك قدّر الله أن تعتقله السلطان الإيرانية، فاعتقل سنوات طوالًا هناك.

والشيخ هو صاحب كتاب (مسائل من فقه الجهاد) وكتاب (أعلام السنة المنشورة في صفات الطائفة المنصورة) وهما سفران ضخمان، ورغم مكانة الشيخ العلمية الكبيرة إلّا أن مؤلفاته ليست بكثيرة العدد، ولكن كان له نشاط في التدريس وتنظيم الدورات العلمية وهو ما يجعل لتفريغ دروس الشيخ وسلاسله العلمية أهمية كبيرة.

سياسة التفريغ:-

لم نلتزم في هذا العمل التفريغ الحرفي لأنه يجعل المادة المكتوبة صعبة الفهم، فقمنا بتعديلات بسيطة كتقديم وتأخير أو حذف كلمة أو إعادة صياغة جملة دون أن نعطي لأنفسنا الحق في زيادة معنى لم يقله الشيخ أو حذف معنى قاله الشيخ؛ فالغرض جعل الكلام بأسلوب الكتابة بأوضح ما يكون بدون تكلف. وقمنا بدمج المادة ككتاب بحذف المقدمات وتغيير صياغة بداية المدروس، وقمنا في هامش الكتاب بتحديد نقاط بداية الدروس حتى يعود إليها من يريد العودة.

وكان الشيخ يستطرد بالشرح أثناء نقل أقوال العلماء فيقف عند كل جملة أو كل كلمة ليشرح ويستطرد حتى يختلط أحياناً كلامه بالكلام المنقول فقمنا بجمع الكلام المنقول مفصولًا وجعلنا بين قوسين "..." ثم أدرجنا شرح الشيخ بعده، والتزمنا في الغالب بوضع علامة (...) للدلالة على الحذف أو الكلام غير الواضح وبالتظليل باللون الرصاصي للدلالة على الزيادة، وحذفنا بعض الشرح الذي لا يصلح في أسلوب الكتابة.

كذلك عندما ينقل الشيخ نقلًا عن كتاب ما فهو يذكر الجزء والصفحة فقمنا بحذف أغلب هذه المواضع لعدم وضوح الصوت وصعوبة تمييز الصفحات والأرقام المحال إليها وعدم معرفة الطبعات التي يحيل إليها الشيخ، واكتفينا بتحقيق المُفرغ في هامش الكتاب، وقمنا بإضافة عناوين جانبية وفهرس في آخر الكتاب، كما قمنا بتخريج بسيط للآيات والأحاديث والآثار والنقول التي ذكرها الشيخ، واعتمدنا في التخريج الطبعات المعتمدة في برنامج المكتبة الشاملة إلا ما نبهنا إليه في الهامش.

مقدمات المادة

أولًا: مراجعة للدورات الشرعية السابقة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد ورسوله، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [١]، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [٢]. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (*) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [٣]، أما بعد:

بحول الله وقوته وتوفيقه نستأنف اليوم ما كنا بدأناه من قبل، ولأنه حلّ علينا ضيوف كرام أردنا أن نقدم بين يدي موضوعنا الجديد نبذة مختصرة عما سبق، فنقول:

تكلمنا في أول ما تكلمنا عن خصائص أهل السنة والجماعة، عن هذا الشعار الحبيب إلى نفوسنا، عن هذا الشعار الذي تتجاذبه طوائف شتّى، كل يدّعي وصلًا بليلى.

فتكلمنا في البداية عن تعريف أهل السنة والجماعة وعن نشأة هذه التسمية، ثم تكلمنا عن أهم خصيصة ميّزت أهل السنة والجماعة على مدار التاريخ الإسلامي وإلى يوم الناس هذا؛ ألا وهي الاعتصام بالكتاب والسنة، الاعتصام الحقيقي وليس الاعتصام المدّعى وليس الاعتصام المعارض بالرأي وبالهوى والقياس والمصالح والمفاسد المزعومة الموهومة التي ما أنزل الله بها من سلطان، وكذلك هو الاعتصام بنوعي القول والعمل، وفصّلنا في هذا ما شاء الله أن نفصل، فتكلمنا عن العقل وعن دوره الحقيقي، وعن تلك الطوائف المبتدعة على مدار التاريخ الإسلامي منذ أواخر الصدر

---

[١] سورة آل عمران الآية ١٠٢

[٢] سورة النساء الآية ١.

[٣] سورة الأحزاب الآيات ٧٠-٧١.

الأول وإلى يوم الناس هذا؛ الذين رفعوا العقل فوق منزلته الحقيقية، وأرادوا منه أن يكون مصدرًا مضاهيًا لكتاب الله وسنة نبيه –صلى الله علية وسلم–، على اختلاف الشعارات وعلى اختلاف المسميّات.

ثم تكلمنا كذلك عن التأويل؛ منذ ظهور الفرق الكلاميّة من لدن جهم وأصحابه، وإلى صور التأويل الحديثة، والتي يروج لها فئام كثيرون اليوم بيننا تحت شعارات ومسميات مختلفة، وإن كان الجوهر واحدًا لم يتغير.

كذلك تكلمنا عن المصلحة؛ عن ذلك الصنم الذي قال في حقه سيد –رحمه الله– أن مصلحة الدعوة صارت عند كثير من الدعاة صنمًا يُعبد من دون الله، في تفسيره لسورة الحج ، ولعل كلامه يأتي معنا –إن شاء الله–.

ثم تكلمنا كذلك في ضمن خصائص أهل السنة والجماعة أنهم ينبذون التقليد ويأنفون من التعصب، وتكلمنا عن معنى التقليد وعن معنى التعصب، وأسهبنا في الحديث عنهما وأنهما من شيم العقل الضعيف والنفوس الضعيفة التي لم تقدر نعمة العقل التي وهبها الله إياها، فرضت لنفسها أن تكون كالأنعام بل منهم من هو أضل، وأسهبنا الحديث عن هذه المسألة.

وتكلنا عن المكانة الحقيقية للرجال في ديننا، وأنهم دلائل لا أكثر، يستدل لأقواهم وأفعالهم ولا يستدل بأقوالهم وأفعالهم، والفرق شاسع بين الأمرين والمنهجين.

وتكلمنا كذلك عن أناس ينبذون التقليد في أقوالهم في حين أنهم في أفعالهم ينغمسون في التقليد حتى الآذان، فهم متحرّرُون في مواجهة أقوام، مقلّدون في مواجهة آخرون، متحرّرون في مسائل لا تكلفهم الكثير، لا تكلفهم ثمنًا باهظًا من دم ونفس، وفي نفس الوقت هم مقلدون محترقون في مسائل أخرى، هذا التقليد والانفصام النكد الذي نراه واضحًا عند حديثنا عن مفاهيم العقيدة الإسلامية.

كذلك تكلمنا عن العلم وعن منزلته عند أهل السنة والجماعة، وعرفنا العلم وتكلمنا عن مفهومه الصحيح، ورأينا كيف أن السلف –رحمهم الله– يفرّقون بين العلم وبين جمع المعلومات، ويفرقون بين العالم وبين تاجر العلوم.

---

[٤] يقول سيد قطب في تفسيره (في ظلال القرآن) ٤\٢٤٣٥: [إن كلمة «مصلحة الدعوة» يجب أن ترتفع من قاموس أصحاب الدعوات؛ لأنها مزلة، ومدخل للشيطان يأتيهم منه، حين يعز عليه أن يأتيهم من ناحية مصلحة الأشخاص! ولقد تتحول «مصلحة الدعوة» إلى صنم يتعبده أصحاب الدعوة وينسون معه منهج الدعوة الأصيل! ..]اهـ.

فالذي يجمع المعلومات ويقف عند هذا الحد، ولا يُحَوِّل هذا العلم الذي رُزِق إياه إلى واقع عملي يعيشه بين الناس إنما هو تاجر علوم، ونقلنا نصوصًا كثيرة في هذه المسألة، ورأينا كيف أنهم يرون أن العلم ما هو إلا وسيلة، وما هو إلا أداة، نحو هدف آخر وغاية أخرى، ألا وهي العلم ، فالعلم يراد للعمل ومن الغفلة العظيمة الوقوف عند حد العلم.

فهذا كالذي أراد أن يسافر إلى مكان ما؛ فظنّ أن هذا المكان هو تلك السيارة التي ركبها في المحطة، ووقف عند هذا الحد، ولم يتقدم خطوة واحدة، فانشغل بالوسيلة عن الهدف والغاية، وهذه المسألة مما لا يحتمل النقاش والجدال عند سلفنا الأفاضل، ترجموا عنها بأقوالهم وأفعالهم.

ثم تكلمنا عن موضوع غاية في الأهمية، وهو يعتبر العصب في الخلاف بين أهل السنة وبين فرق الضلالة، ألا وهو منهج أهل السنة والجماعة في النظر والاستدلال، وفصّلنا الحديث ما شاء الله أن نفصل حول جزئيات هذا المنهج وحول قواعده، ولعل بعضها يأتي معنا في ثنايا بحثنا الجديد.

وكذلك بالمقابل تكلمنا عن منهج المبتدعة في النظر والاستدلال، ورأينا أن بين المذهبين بونًا شاسعًا، وهذا كان الموضوع الأول الذي تحدثنا فيه [خصائص أهل السنة والجماعة]، وفي ثنايا الموضوع مرت معنا فوائد جمّة لا يستغني عنها اليوم مسلم فضلًا عن من ينتسب إلى العلم والالتزام.

ثم تحدثنا في الموضوع الثاني عن الإيمان؛ عن حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة، وهذا الموضع هو من فروض الأعيان على كل مسلم ومسلمة، خاصّة على من يدعي الالتزام أو يدعي الانتساب إلى العلم بسبب من الأسباب، وخاصّة على المجاهد الذي نفر في سبيل الله وأراد أن يتحلى بهذا الاسم أو بهذا اللقب، ونقلنا نصوصًا كثيرة عن شيخيّ الإسلام؛ ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب –رحمهما الله–.

أول ما تكلمنا في موضع الإيمان وحقيقته عند أهل السنة والجماعة تكلمنا عن أهمية هذا الموضوع ثم تكلمنا عن سبب الاختلاف في مسألة الإيمان أو في مسائل (الأسماء والأحكام)، فباب الإيمان يُعرف عند أهل السنة ولجماعة بباب الأسماء والأحكام، وفصلنا الحديث حول هذه التسمية وحول سببها.

وكذلك تكلمنا بعد ذلك عن منهج أهل السنة والجماعة في فهم الألفاظ الشرعية والواردة في الكتاب والسنة، والتي منها ألفاظ الإيمان والفسوق والعصيان والكفر والنفاق؛ إلى غير تلك الأسماء التي تكون لنا حقيقة باب الأسماء والأحكام.

ورأينا كيف أن لأهل السنة والجماعة منهجًا متميزًا في فهمهم لمعاني تلك الأسماء الشرعية يختلف تمامًا عن منهج الطوائف المبتدعة التي خالفت في هذا الباب؛ أعني فرق المرجئة بأقسامها وفرق الخوارج بأقسامها.

ثم تكلمنا بعد ذلك عن الإيمان بين اللغة والشرع، وهذا الفصل كان يدور ويتركز في الرد على فرق المرجئة الذي حصروا معنى الإيمان في التصديق.

ثم تكلمنا بعد ذلك عن عناصر الإيمان، وهو من أطول فصول موضوع الإيمان، رأينا كيف أن الإيمان عند أهل السنة والجماعة يتكون من عناصر ثلاث؛ اعتقاد ثم قول ثم عمل، وفصلنا الحديث في كل واحد منها، وخرجنا بنتيجة أن الإيمان عند أهل السنة والجماعة حقيقة مركّبة من الاعتقاد والقول وعمل، ولا يتصور أن ينفك أحدها عن الباقي.

ثم تكلمنا بعد ذلك عن قاعدة من أنفع القواعد الإيمانية في هذا الباب، وهي التلازم بين الظاهر والباطن، فكل منها دليل على الآخر، إن صحةً فصحة وإن فسادًا ففساد، ورأينا أن هذه المسألة ممّا نقل إلينا من سلفنا الصالح نقلًا صحيحًا لا يحمل مطعنًا ولا شبهة إلا عند الطوائف المبتدعة.

ثم تكلمنا بعد ذلك عن لزوم جنس العمل أو لزوم قسط من الأعمال لتحقيق النجاة من الخلود في نار جهنم، لا بد للعبد أن يأتي بقدر ما من أعمال الجوارح حتى تتحقق له النجاة من الخلود في نار جهنم، وفصلنا المراد من هذه القاعدة، ثم تكلمنا بناءً على هذا المسألة على كفر تارك المباني والخلاف الذي دار بين أهل السنة والجماعة حول هذه المسألة، ورجّحنا الراجح أو ما وفقنا الله –سبحانه وتعالى– إليه.

ثم تحدثنا أخيرًا عن مراتب الإيمان ورأينا أن الإيمان عند أهل السنة والجماعة له ثلاث مراتب؛ المرتبة الأولى تُعرف بأصل الإيمان وتحدثنا عنها بالتفصيل، والمرتبة الثانية والتي تُعرف عندهم بالإيمان الواجب ولها تفاصيل مرت معنا، والمرتبة الثالثة والتي تُعرف عند أهل السنة والجماعة بالإيمان المستحب.

ثم انتقلنا إلى الموضوع الثالث، وقلنا أن موضوع الإيمان يُعتبر حجر الأساس الذي تنبني عليه سائر الموضوعات التي تأتي تباعًا، والذي يعرف حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة فهمًا صحيحًا خاليًا من أي شبهة أو شهوة؛ يستطيع أن يبني عليه سائر التصورات في سائر الموضوعات.

وتكلمنا عن موضع الحاكمية. بدأنا الحديث عن تاريخ الحكم بغير ما أنزل الله في البشرية عامة وفي الأمة الإسلامية خاصة، ثم تكلمنا عن نظرة إجمالية في شريعة الرحمن وأخرى في شريعة الشيطان، ثم تكلمنا كذلك عن منزلة الحاكمية من الدين؛ فتكلمنا عن منزلتها من معنى الدين، ثم عن منزلتها من مضمون الشهادتين، ثم عن منزلتها من توحيد الربوبية، ثم عن منزلتها من توحيد الأسماء والصفات، ثم عن منزلتها من توحيد الألوهية، ثم عن منزلتها أخيرًا من الإيمان.

ثم تكلمنا كذلك عن الأدلة النصية على كفر الحكام بتلك القوانين الوضعية، وذكرنا جملة كثيرة من آيات ربنا القطعية الثبوت والقطعية الدلالة في كفر هؤلاء الحكام الذين ارتضوا لأنفسهم أن يشرعوا ما لم يأذن به الله من سلطان.

ثم تكلمنا بالتفصيل عن آيات المائدة؛ عن قوله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ} [٥] وفصلنا الحديث في هذه الآية تفصيلًا مشبعا، فتكلمنا أولًا عن سبب النزول وتكلمنا عن صفة فعل اليهود الذي استحقوا بها أن يكفروا بها من فوق سبع سموات. ثم تكلمنا عن المشابهة الواضحة لكل ذي عينين والتي لا يشك فيها إلا من طمس الله على بصيرته وأعماه عن نور الوحي فهو مثلهم –وهذه المقولة هي مقولة الشيخ الشنقيطي رحمه الله–، فتكلمنا عن تلك المتشابه الواضحة بين صفة فعل اليهود وعن صفة فعل الحكام المعاصرين.

ثم تكلمنا بعد ذلك عن الشبهة الأولى التي تثار حول تلك الآية؛ وهي أنها خاصة بأهل الكتاب، ورددنا –ولله الحمد والمنة– على تلك الشبهة من نحو أحد عشر وجهًا.

ثم تكلمنا عن الشبهة الثانية التي تثار ويدندن حولها من يدندن أن الكفر المذكور في الآية هو الكفر الأصغر؛ ورددنا –ولله الحمد والمنة– على هذه الشبهة من سبعة أوجه، كلها قطعية الدلالة في إثبات المراد، عرف من عرف وجهل من جهل.

---

[٥] سورة المائدة الآية ٤٤.

ثم تكلمنا عن أثر ابن عباس –رضي الله عنهما– وفصلنا الحديث حول هذا الأثر (كفر دون كفر)، وبينا بيانًا كافيًا شافيًا أن الذين يستدلون بهذا الأثر لا يفهمون أولًا معناه، ثم ينزلونه في مناط غير المناط الذي ورد فيه، وذكرنا جملة كثيرة من كلام أهل العلم في القديم والحديث في الرد على هذه الشبهة.

ثم تكلمنا حول حجية الإجماع، وحول دلالته في إثبات أن الكفر المذكور في هذه الآية هو الكفر الأكبر، ثم نقلنا الإجماع المنعقد على كفر الحاكم المشرع لغير ما أنزل الله، وقلنا أنه إذا انعقد الإجماع وثبتت صحته فليس هناك أي معنى للخلاف والنقاش حول هذه المسألة، فالإجماع هو أقطع القطعيات، وهو دليل مستقل في أي مسألة يثبت أن فيها إجماع، ورأينا أن هذا الإجماع نقله لنا أئمة ثقات؛ بدايةً بشيخ الإسلام ابن تيمية وابن كثير ومرورًا بعلماء أفاضل من المعاصرين منهم الشيخ الشنقيطي –رحمه الله–.

ثم تكلمنا عن الشبهة الأخيرة التي تثار حول تلك الآيات وحول هؤلاء الحكام؛ وهي اشتراط الجحود والاستحلال القلبي، وهو ما عبر عنه البعض باشتراط الاعتقاد، وذكرنا كيف أن هذه الشبهة –على التحقيق– شبهة متهافتة لا تستحق أن يُرد على قائلها، إلا أننا فصلنا الرد تفصيلًا مشبعًا حول هذه الجزئية، ورأينا أن هذه المقولة هي على التحقيق مقولة جهم بن صفوان وأمثاله، فكفى بهذا خزيًا وعارًا لمن يستدل بهذه المقولة وبمن يشترط هذا الشرط دفاعًا عن هؤلاء الحكام، كفى له خزيًا وعارًا أن يسلك مسلك جهم وأتباعه، وما أدراك ما جهم!

ورددنا بنقول أئمتنا الثقات –وليس لنا كما رأيتم إلا النقل–؛ بدايةً من الحميدي شيخ الإمام البخاري، والإمام أحمد إمام أهل السنة والجماعة، ونهاية بنقول نقلناها بين أيديكم للشيخين ابن باز وابن عثيمين في الرد على هذه الشبهة، والرد على كل من اشترط الاعتقاد في الحكم على كل من قارف مكفرًا قولًا كان أو فعلًا.

وبيّنا أن هذه المقولة هي قول غلاة المرجئة؛ قول الجهمية من المرجئة، ونقلنا لكم كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وكلام الإمام أحمد وكلام الحميدي وكلام ابن ثور في تكفير من اشترط الجحود أو الاستحلال القلبي في الحكم بالكفر على فاعل القول أو الفعل المكفر، وكان هذا آخر ما تيسر لنا في الحديث عن موضوع الحاكميّة، هذا الموضع الذي طال بين أيدينا.

ثانيًا: توطئة عن الدورة:

اليوم –إن شاء الله– نبدأ الحديث في موضوع جديد، ونحن نذكر الإخوة أننا قد اشترطنا على أنفسنا وألزمناها أن لا نتكلم إلا في تلك المسائل الكبار؛ والتي كلها ولله الحمد محل إجماع، ولا يتصور أن يختلف فيها اثنان، إلا أنها في زمننا هذا لا يختلف فيها اثنان فحسب وإنما يدعي عدم صحتها فئام كثيرون ويرون أنها ليست من الدين وليس لها علاقة من الإسلام، رغم أنها أصل الدين، وأصل الإسلام، وأصل الإيمان، وأصل التوحيد! فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فهي من الأمور في الكتاب وفي السنة وعند السلف من البديهيات، ومن الأمور التي لا تحتمل مجرد النقاش، فضلًا من أن يفرد بها المصنفات والمحاضرات لتقريرها. وكل هذا –كما قال الشيخ سفر– من باب الغبش الكثير والغياب المذهل عن حقائق الإسلام، وكلامه نفيس في هذا الباب [٦].

اليوم –إن شاء الله– نبدأ الحديث في موضوع على غاية عظيمة من الأهمية، وكل موضوعات العقيدة مهمة، ونحن لا نتبنى منهج التبعيض كما يتبناه البعض، فكل ديننا مهم؛ إلا أنه وكما هو مُقرّر عند سلف هذه الأمة؛ إذا تزاحمت الواجبات يقدم الأهم. وهذا فقه –وللأسف– غائب عن كثير من العاملين في الساحة الإسلامية، فينشغلون بالمهم ويتركون الأهم، وليسوا يتركونه فحسب وإنما يحاربونه ويعادونه وينبزونه بالألقاب؛ لصرف الناس عن هذا الحق وتخذيلًا لهم، وليس بضارهم بشيء إلا بإذن الله تعالى.

حديثنا اليوم عن مفهوم من مفاهيم عقيدة السلف، إلا أن هذا المفهوم أشد غيابًا عن سائر المفاهيم الأخر، فهذا المفهوم يكاد أن يندثر بيننا، ويكاد أن يصبح أثرًا بعد عين، لولا ثُلّة من المؤمنين، نحسبهم كذلك.

حديثنا اليوم عن تلك الملة التي بالفعل هُجر نهجها، فصارت –كما قلنا– أثرًا بعد عين، حديثنا عن الأمس الناصع واليوم الفاضح، عن الماضي التليد والحاضر الذليل، كل هذا لأننا فرطنا في تلك العقيدة المُغيَّبة في واقعنا، وأصبحت هذه العقيد اليوم محنة يُمتحن به الصادق من الدَعِيّ، ويمتحن بها المتمسك بدينه حقًا وصدقًا من الذي ليس له من التمسك بالدين إلا الكلام والجمل الإنشائية التي يحسن تنميقها. فكما كانت محنة القوم بأن القرآن كلام الله غير

---

[٦] **يقول الشيخ سفر الحوالي في كتابه (العلمانية) ص٦٨٦: " الحق أنه لا مجال لشيء من ذلك، ولكن الغياب المذهل لحقائق الإسلام من العقول والقلوب، والغبش الكثيف الذي أنتجته عصور الانحراف، هذا وذاك هما اللذان يجعلان كثيرًا من الناس يثيرون شبهات متهافتة لم تكن لتستحق أدنى نظر لولا هذا الواقع المؤلم." اهـ.**

مخلوق يُمتحن بها اليوم الصادق من الدعي، المؤمن الحق مِمّن في دينه دخن، وكذلك هذه العقيدة اليوم، فرق بين الناس، وفرق والمؤمنين والمسلمين، هي عقيدة تُميّز الصفا وتخرج الخبث، حديثنا اليوم عن عقيدة الولاء والبراء، عن المولاة والمعاداة في دين الله، عن جوهر الإيمان، عن حقيقة التوحيد، عن ملة إبراهيم التي غودر نهجها.

ثالثًا: مقدمة في وجوب اتباع الدليل وتحرّيه:

إلا أننا وقبل أن نبدأ الخوض في غمار هذه العقيدة هناك تذكرة أحببت أن أذكّر بها نفسي وإياكم، ألا وهي وجوب طلب الحق وتحريه واتباع الدليل والالتزام به، وهذا على التحقيق أصل من أصول الإيمان، وهو أمر بدهي يُفترض أن يتوفر في كل مسلم؛ أن يبحث عن الحق جاهدًا، فيبذل في سبيله الوسع ويستفرغ الجهد نيلًا له وتمسكًا به، إلا أننا في زمن لا يخلو من الشبهات ولا يخلو من الشهوات، بل على التحقيق أبرز ما يميز زماننا هي الشبهات.

والمسلم الصادق مع نفسه ومع ربه يجب عليه أن يندفع اندفاعًا ذاتيًا للبحث عن الحق، أينما كان وممّن كان، فالحكمة ضالة المؤمن، ومن الغفلة العظيمة أن يصرّ الإنسان على ما في نفسه وأن يُعرض عن كل ما سواه، وأن يعتقد أن الحق كل الحق في هذا الذي لديه، وأن الناس ليس لديهم من الحق شيء يُذكر. فالعاقل يُنصف من نفسه ويُنصف غيره، والعبرة بالدليل والالتزام به، وليس العيب أن نختلف وإنما العيب كل العيب أن لا نرد الخلاف إلى الكتاب والسنة، وهو على التحقيق–كما قال ابن حزم– ليس عيبًا فحسب وإنما هو قادح من قوادح الإيمان؛ أن تُدعى إلى الاحتكام إلى كتاب ربنا وسنة نبينا فتُعرض وتصر على ما عندك وتظن أنك تحسن صنعًا والأمر على خلاف ذلك.

وليس منا إلا من تربّى على فكر ما وطريقة ما، وتشرّب قلبه برأي ما، درج عليه ونشأ فيه، وأحكم قلبه وأغلقه عليه واعتقده حقًا وصواب، إلا أن الذي يبتغي النجاة الحقيقية دائمًا يُفَتّش بَين جنْبَيه ويُمحّص هذه الجُملة من الآراء والأفكار والاعتقادات، ويعرضها عرضًا صادقًا على كتاب الله وسنة نبيه –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– بفهم سلف الأمة، ليس بفهمي ولا فهمك ولا بفهم فلان ولا علان ولكن بفهم سلف الأمة، ونحن قلنا أن تلك الأمور التي نتدارسها كلها محل إجماع منعقد وليس لنا إلا النقل.

نقول: العاقل يعلم أنه سوف يُسأل يوم القيامة، وسوف يُسأل عن نفسه، وسوف يُسأل فردًا؛ {وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} ، وأنه لن ينفعه إلا صدق الجواب وصحته، فأنت عليك أن تعد للسؤال جوابًا وللجواب صوابًا.

ولذلك كان من شيم العقلاء أنهم إذا عُرض عليهم قول أو رأي أو فكر؛ استمعوا له وأنصتوا له، بل أصغوا الانصات وأرهبوا السمع؛ لعل الحق يخرج من هذه الأفواه، ولعلهم يسمعون ما ينفعهم، هذه هي شيم العقلاء، والعكس بالعكس؛ من شيم ضعاف العقول وضعاف النفوس أنهم يعرضون ويفرون ويأنفون من المواجهة ومن تمحيص الأفكار بميزان الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، هذه شيمة النفس والعقل الضعيفان.

وليكن لكم أسوةٌ حسنةٌ في ذلك الصحابي الجليل الطفيل بن عمرو الدوسي –رضي الله عنه–، ذلك الرجل اللبيب العاقل الشاعر صاحب الحكمة، المعروف بين قومه وبين قريش بالعقل والذكاء فضلًا عن أنه كان شاعرًا، يوم أن ذهب إلى مكة حاجًا أو معتمرًا، وكان حديث الناس يومئذٍ عن محمد –صلى الله عليه وسلم– وما جاء به، فلما رأوه وهم يعرفون عقله وحكمته؛ أرادوا أن يصرفوه عن الاستماع لهذا الدين ولهذا الحق ولهذا الهدي، فقالوا له محذّرين منفّرين مثبّطين مخذلّين –في تلك الصورة التي تتجدد اليوم–: "إياك وإياك، إياك والاستماع، إياك والانصات، إنه شاعر، إنه يفرق بين المرء وزوجه وبين الابن وأبيه وإنه كذا وكذا"، حتى جعلوه يضع الكرسف في أذنه خوفًا من سماع الحق ومن سماع كلامه الله.

إلا أن الرجل كان صاحب عقل، وهنا الشاهد؛ فلام نفسه لومًا شديدًا ووبخها وقرعها على هذا الفعل الذي لا يصدر –كما قلنا– إلا من ضعيف العقل والنفس، فقال: "ما هذا الذي أفعل ومن أي شيء أخاف؟ أنا صاحب عقل، وصاحب فطنة، وصاحب ذكاء، وهبني الله العقل والفهم الذي أستطيع أن أميز به بين الحق والباطل، ما علي لو أستمع للرجل، فإن كان في كلامه الحق والخير والصواب، فأنا أولى الناس به ، وأنا أحق الناس به".

وهذا شعار المسلم، المسلم دائمًا يردد الحق رأيي، الحق بضاعتي رُدت إلي، هذا هو الصادق مع نفسه ومع ربه، الذي يرجو الحق والنجاة يوم القيامة، هذا الذي سَلِم قلبه من مَرَضيْ الشبهة والشهوة.

---

[٧] سورة مريم الآية ٩٥.

هذه المعاني كلها دارت في نفس وعقل الطفيل –رضي الله عنه–، ورأى أنه قد أساء الفعل والتصرف، ولذلك ذهب بنفسه مسرعًا إلى النبي –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– وجلس بين يديه طالبًا منه أن يعرض عليه هذا الذي يدعو إليه الناس.

وبالفعل ما هي إلا لحظات قليلة حتى بدأ النبي –صلى الله عليه وعلى آله وسلم– يقرأ على مسامعه آياتٍ من القرآن الكريم ويوضح له دعوته، ولما كان الحق أبلج؛ دخل الرجل مباشرةً في دين الله، وعَرَف أي خير وأي حق كان سيُحرم منه لو استمع لكلام قريش، وأي باطل كان سيلج فيه لو أنه أعرض عن الاستماع للحق والخير!.

وقصة أخرى ربما أغرب من هذه القصة؛ قصة سويد بن الصامت من أهل يثرب، يقول الأنصار أنه أوّل من أسلم من المدينة، هذا الرجل ذهب كذلك إلى مكة حاجًا أو معتمرًا، ودخلت أذنه تلك التحذيرات والتنبيهات وتلك القائمة الطويلة التي تردد في كل زمان ومكان؛ "إياك وفلان وإياك وعلان، إياك من ذلك المكان"، كلام قديم حديث، والباطل ليس لديه جديد في مواجهة الحق، وإنما هي بضاعة تُعرض في شكل جديد والأصل واحد، ونقول إنها بضاعة نافقة ولله الحمد.

وهذا الرجل كان كذلك شاعرًا وكان ذا عقل حتى أنه كان يُلقّب بالكاهن، لقبه بهذا قومه لما رأوا فيه من تلك الصفات النادرة التي قلما تجتمع في رجل واحد، لما دخل مكة وسمع بمحمد –صلى الله عليه وسلم– وبدعوته وبما أحدثته تلك الدعوة في أوساط قريش، أراد أن يستمع إليه، وعندما قابل النبي –صلى الله عليه وسلم– وانظروا لهذا الموقف وانظروا لهذا الشاهد، قال له: "يا محمد إن معي مثل ما معك؟"

فقال له النبي –صلى الله عليه وسلم– وهو يعلم يقينًا أنه ليس معه شيء، وأنه مأمور مكلف بالإيمان به، ورغم قال له: "وما معك يا سويد؟"

قال: "معي حكمة لقمان". وهذا الرجل كان ممن يقرأ في الكتب القديمة.

فقال له النبي –عليه الصلاة والسلام–: "اعرضها علي"، رغم أن النبي –صلى الله عليه وسلم– يعلم أنها لا تساوي شيئًا بالمقارنة مع ذلك الحق الذي أُنزل عليه من سبع سماوات، فلما عرضها على النبي –صلى الله عليه وسلم– قال له: "إن ما معك حسن، ولكن ما معي أفضل فاستمع يا سويد".

وانظر كيف أن النبي عليه الصلاة والسلام سمع له، فلماذا تخاف من الاستماع؟ ولماذا تُعرض؟ فما رأيته من حق فتمسك به وعض عليه بالنواجذ وقل: بضاعتي رُدت إلي، فليس هناك أحد أولى بالحق منك، والحق بضاعة مشتركة بين المؤمنين، هذا عند من يحترم عقله ونفسه.

فقال له النبي –صلى الله عليه وسلم–: "إن ما معي أفضل فاستمع يا سويد". فاستمع سويد ودخل الإيمان قلبه فأسلم وآمن، وذهب إلى يثرب وقُتل يوم بُعاث.

أمّا الإعراض فالمُعرِض بدايةً لا يضر إلا نفسه، كما قال الشاعر:

إلى ديان يوم الدين نمضي	**وعند الله تجتمع الخصومُ**
ستعلم في الحساب إذا التقينا	**غدًا عند الإله من الملومُ**

والإعراض هو خصلة من خصال أهل الجاهلية؛ الذين يفرحون بما عندهم من العلم، كما وصفهم المولى –سبحانه وتعالى– في كتابه، ويظنون أن هذا هو الحق الصراح رغم أنه قد يكون الباطل الصراح، ولذلك يُعرضون عن كل ما سواه.

وقد ذكر شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في كتابه النفيس على صغر حجمه (مسائل الجاهلية)، التي خالف فيها النبي –صلى الله عليه وسلم– أهل الجاهلية، ذكر تلك المسألة وجعلها من خصال الجاهلية، فقال –رحمه الله– في المسألة الرابعة والعشرين: "...الكفر بما مع غيرهم من الحق" [8].

فجاء الشارح علامة العراق السيد محمود شكري الألوسي؛ الذي توسع في شرح المتن، فقال: "ولا شك أن هذه من الخصال الجاهلية، وعليه اليوم كثير من الناس، لا يعتقد الحق إلا معه... والحزم أن ينظر إلى الدليل، فما قام عليه

---

[8] **نص كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب كما في مجموع مؤلفات الشيخ التي نشرتها جامعة الإمام سعود: [(الرابعة والعشرون) : ترك الدخول في الحق إذا سبقهم إليه الضعفاء تكبرًا وأنفة، فأنزل الله تعالى: {وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ} ٤. الآيات.]**

الدليل فهو الحق الحريُّ أن يُتَلَقَّى بالقبول، وما ليس عليه برهان ولا حجة يُنْبَذ وراء الظهور، وكل أحد يؤخذ من قوله ويُرَد إلا من اصطفاه الله لرسالته" اهـ.[٩]

(..) والشيخ الألوسي إنما يتكلم عن عصره عندما يقول: "وعليه اليوم كثير من الناس"، فماذا نقول نحن اليوم؟ (....).

ثم يعود صاحب المتن الشيخ محمد بن عبد الوهاب فيقول: "المسألة الخامسة والعشرون: ادعاء كل طائفة حصر الحق فيها." اهـ.[١٠]

وقال كذلك في المسألة الثامنة والعشرون: "إنكارهم الحق الذي لا تقول له طائفتهم" ، وهذه مسألة نراها كل يوم رأي العين، فتجده لا يقبل الحق إلا الذي يخرج من قومه ومن عشيرته أو الذي يخرج من فلان أو علان ممن ارتضاهم أئمة له، أما إن جاءه الحق من رجل آخر أو من تجمع آخر فلا يقبله، لا لشيء إلا لأنه لم يأتي من تجمعه. وهذه مسألة أشهر وأظهر من أن نُدلّل عليها ونضرب لها الأمثال.

وللإمام سحنون المالكي كلمة بليغة غاية في النفاسة على وجازتها، يقول الإمام سحنون كما ذكر القاضي عياض في كتابه (ترتيب المدارك وتقريب المسالك): "يكون عند الرجل باب واحد من العلم فيظن أن الحق كل الحق فيه" اهـ.

فيكون للمسألة عدة أوجه وفيها عدة نصوص وفيها إجماع بل إجماعات –كما رأينا في قضية الحاكمية فنقلنا لكم ستة إجماعات كل إجماع منها كافٍ أن يزلزل الناس–، فيتمسك بقوله وهذه من الغفلة العظيمة.

ويقول المولى –سبحانه وتعالى– في وصف هؤلاء القوم ومن نحا نحوهم {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ} ، واستمع لكلام الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي في تفسيره النفيس (تيسير الكريم الرحمن في تفسير

٩(فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية)، للشيخ محمود الألوسي، ط علي مخلوف صـ ٤٥.

١ نص كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب كما في مجموع مؤلفات الشيخ التي نشرتها جامعة الإمام سعود: [(الخامسة والعشرون) : الاستدلال على بطلانه بسبق الضعفاء كقوله: {لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ}]

١ نص كلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب كما في مجموع مؤلفات الشيخ التي نشرتها جامعة الإمام سعود: [(الثامنة والعشرون) : أنهم لا يقبلون من الحق إلا الذي مع طائفتهم كقوله: {قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا}.]

١ كتاب (ترتيب المدارك وتقريب المسالك) للقاضي عياض، مطبعة فضالة، ٤ | ١٧٥

كلام المنان)، يقول الشيخ في تفسير هذه الآية النفيسة {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ} : "وليس عدم ٤
علمهم بالحق لخفائه وغموضه، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا فلو التفتوا إليه أدنى التفات، لتبين لهم الحق من الباطل تبينًا واضحًا جليًا." اهـ. [٥] [١]

فالحق أبلج وأوضح من الشمس في رابعة النهار، والحق واضح والله —عز وجل– وصفه بأنه (بلاغ مبين) وبأنه (كتاب مبين) وأنه (ظاهر)، والنبي –عليه الصلاة والسلام– قال: (قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ) ، فالليل والنهار فيها سواء[١]، كناية عن منتهى الوضوح،[١] فالحق ليس فيه خفاء. فالسبب الحقيقي لعدم سلوكهم الحق طريقةً ومنهاجًا هو الإعراض.

فالعيب ليس في الحق، حاشا لله أن نطعن في شريعة ربنا، وإنما العيب في هذه العقول وفي هذه النفوس وفي هذه القلوب التي لا تتعامل بإنصاف مع الكتاب والسنة، وإنما تتعامل بأمور مبيتة في نفوسها، أمور أحكمت عليها قلبها واعتقدتها حقًا وصوابًا. (...).

والنبي –صلى الله عليه وسلم– يقول في الحديث الصحيح المروي عن جمع من الصحابة؛ منهم أبو هريرة وابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وابن مسعود وغيرهم، وهو عند الإمام مسلم ذكره في [كتاب الإيمان باب تحريم الكبر ١\٦٥]، ورواه كذلك أبو داوود والترمذي وأحمد والحاكم، وخرجه الألباني في السلسلة الصحيحة، يقول الرسول –صلى الله عليه وسلم–: (الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ) ، وفي رواية الترمذي: (وغَمْصَ الناس) [١] بالصاد. ٨

يقول النووي في شرحه لهذه الجملة من هذا الحديث، يبين الفرق بين (غمط) و(غمص): "وَهُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ وَمَعْنَاهُ احْتِقَارُهُمْ.."اهـ، (..) ثم قال النووي: "أما بَطْرُ الْحَقِّ فَهُوَ دَفْعُهُ وَإِنْكَارُهُ تَرَفُّعًا وَتَجَبُّرًا"اهـ ؛ فيتجبر أن يخضع لقول [٩]

---

[١] سورة الأنبياء الآية ٢٤.

[١] سورة الأنبياء الآية ٢٤.

[١] تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، ط الرسالة ، ١\٥٢١

[١] مسند الإمام أحمد (١٧١٤٢).

[١] صحيح مسلم (١٤٧).

[١] سنن الترمذي (١٩٩٩).

[١]، للإمام النووي، الطبعة الثانية دار إحياء التراث ، ٢\٩٠. ا المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج

فلان وعلان، ويتجبر أن يقبل منك كلام الله وكلام رسوله –صلى الله عليه وسلم– وإجماع العلماء، لأنه خرج منك ولو خرج من شيخه ومن فلان وعلان لقبله، فهذا ليس متجردًا للحج وليست بغيته مرضاة الله –سبحانه وتعالى–.

ويقول ابن الأثير في كتابه المشهور (النهاية في غريب الحديث والأثر)، يقول في شرحه لهذه الجملة من الحديث (الكبر بطر الحق): "وَقِيلَ هُوَ أَنْ يَتجبَّر عِنْدَ الْحَقِّ فَلَا يَرَاهُ حَقًّا. وَقِيلَ هُوَ أَنْ يتكبَّر عَنِ الْحَقِّ فَلَا يقبلُه." اهـ.

فالمتكبر مهما تعرض له وتعرض عليه وتقرر له لا يستجيب؛ لأنه أحكم في قلبه فكرةً ورأيًا فيك وفي ما تقول، فمهما تحاول معه تجد آذانًا مغلقة وقلوبًا مغلفة. وحُرّمت الجنة على من في قلبه مثقال ذرة من كبر، فلينتبه الإنسان لنفسه. والأخطر من ذلك أن يصد الناس عن اتباع الحق، والأخطر من ذلك أن ينبري داعيةً لتلك الضلالات التي يظن أنها حق محض فيبوء بإثمه وإثم الآخرين.

والمسكين لا يعلم –أو يعلم ولكنه ينسى أو يتناسى في خضم الشبهات– أن عاقبة الإعراض عن الحق وبيلة بل مصيبة في الدنيا والآخرة، لا يعمل أن عاقبة الإعراض عن الحق هي انقلاب القلوب والزيغ والوقوع في الشبهات وفي البدع والتي ربما تنتهي إن لم تتداركه رحمة الله إلى الشرك والخروج من هذا الدين بالجملة، قال تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}[1][2] .

يقول الإمام ابن كثير تفسيره لهذه الآية: "أَيْ فَلَمَّا عَدَلُوا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ مَعَ عِلْمِهِمْ بِهِ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْهُدَى وَأَسْكَنَهَا الشَّكَّ وَالْحَيْرَةَ وَالْخُذْلَانَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ}[2][2]." اهـ.

واستمع لقوله تعالى، استمع لتلك الآية: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} ، ويقول الشيخ السعدي[3] في تفسيره: "أي: ونعاقبهم، إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعي، وتقوم عليهم الحجة، بتقليب القلوب، والحيلولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم، وهذا من عدل

---

[2] كتاب (النهاية في غريب الحديث والأثر) ، لابن الأثير، ١٣٥\١

[2] سورة الصف الآية ٥.

[2] تفسير ابن كثير، ط دار الكتب العلمية، ١٣٦\٨

[2] سورة الأنعام الآية ١١٠

الله وحكمته بعباده، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفُتِحَ لهم الباب فلم يدخلوا، وبُيِّن لهم الطريق فلم يسلكوا، فبعد ذلك إذا حُرموا التوفيق، كان مناسبًا لأحوالهم." اهـ. [٤] [٢]

والمولى -سبحانه وتعالى- يقول: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} ، وانظر لتفسير الإمام أحمد: "الْفِتْنَةُ الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَزِيغَ فَيُهْلِكَهُ" . [٦]

والإمام استدل بهذه الآية في مسألة فرعية؛ في ذلك الرجل الذي أراد الخروج للحج من المدينة إلى مكة، فأراد أن يحرم من غير المكان الذي كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يحرم منه، فاستدل الإمام بهذه الآية، فإذا كان هذا في مسألة فرعية من الفقهيات فما بالك بالعقيدة وأصول الإيمان وحقيقة التوحيد؟!

والله -عز وجل- يقول كذلك: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} ، ثم قال تعالى [٧] معقبًا: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} . عقابًا من المولى -سبحانه وتعالى-، الذي [٢] يعرض عن الاستجابة لله ورسوله يكون العقاب القاسي أن الله تعالى يحول بينه وبين هذا الحق، يريد أن يتّبعه وأن يسلك هذا النهج فلا يستطيع، لأنه فرّط يوم أن عُرض عليه ويوم أن قُرّر بين يديه.

ولله در الإمام العَلَم العلّامة ابن القيم -رحمه الله-، لله دره إذ يقول في نونيته:

والله ما خوفي الذنـوبُ فإنها ... لعلى طريق العفو والغفرانِ

لكنّما أخشى انسلاخ القلب من ... تحكيم هذا الوحي والقرآنِ

ورضًا بآراء الرجال وخَرْصِهَا ... لا كان ذاك بمنّة الرحـمنِ

---

[٢] تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، ١\٢٦٩

[٢] سورة النور الآية ٦٣.

[٢] (الإبانة الكبرى) لابن بطة أثر رقم (٩٧)،

[٢] سورة الأنفال الآية ٢٤.

[٢] سورة الأنفال الآية ٢٤.

ابن القيم ذلك العابد العالم الرباني يقول هذا الكلام، يخاف –رحمه الله– من أن يُعرض عن تحكيم كتاب الله في كل قول وفي كل فعل، ولو أن كلًا منا ألزم نفسه بهذا الأمر لانصلح حالنا، ولما رأينا ولما سمعنا بتلك الأمور التي يستحي الإنسان أن يُصرّح بها.

ونختم بقوله –صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم– : (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ) ، العاقل لا ٩ يعطي عقله لكل ناعق ولكل من هبّ ودبّ، ليست هذه صفة المسلم، المسلم عاقلٌ أريب كَيّسٌ فَطِنٌ وليس كِيسُ قُطْن! له منهج يعرض عليه كل كبيرة وصغيرة، وليس بإمعة يتّبع كل ناعق، وإنما المسلم يوطّن نفسه على اتباع الحق أيًا كان ومع من كان، ولو كان سوف يسلكه وحده، كما قال الفضيل بن عياض: "لا تسوحش من قلة السالكين ولا تغتر بكثرة الهالكين" ، {وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} ، الكثرة دائمًا هالكة، هكذا شاء الله –سبحانه وتعالى– في حكمته، والقلة هي الناجية، ولا أعجب ممن هلك كيف هلك، ولكن أعجب ممن نجى كيف نجى!.

لا تُوحشنّك غربة بين الـورى ... **فالناس كالأموات في الحسبانِ**

أوَمَا علمت بأن أهل السنـــة ... **الغرباء حقًا عند كل زمــانِ**

قل لي متى سَلِم الرسول وصحبه ... **والتابعون لهم على الإحـسانِ**

مِنْ جاهلٍ ومعاندٍ ومنافـــقٍ ... **ومحاربٍ بالبغي والطـغيانِ؟**

وتظن أنـــك وارثٌ لهمُ وما ... **ذُقت الأذى في نصرة الرحمنِ**

هذه هي سنة هذا الطريق، وسنة الأنبياء والمرسلين، فإياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، وبئس مطية القوم زعموا، وتذكر أنك ستُسأل يوم القيامة وحدك، ولن ينفعك ولن ينجيك في ذلك اليوم العظيم –الذي الأصل أن لا

---

٢ صحيح البخاري (٥١٤٣) وصحيح مسلم (٢٥٦٣).

٣ أنظر (الاعتصام) للشاطبي ١\١١٢.

٣ سورة الأنعام الآية ١١٦

يغيب من ذهنك لحظة واحدة- إلا صدق وصحة الجواب، فليصدق كل منا مع نفسه ومع ربه وليتحرّ الحق بشغف وبصدق وإخلاص، ووليكن شعاره الحق رائدي والحق بضاعتي ردت إلي. (..).

رابعًا: التعريف بمواضيع الدورة:

(....) كما قلنا سنتكلم في هذه الدورة -إن شاء الله وبحوله وقوته- عن موضوع غاية في الأهمية، هو الترجمة العمليّة لمعنى التوحيد ولمعنى الإيمان ولمعنى العبودية، هو موضوع (الموالاة والمعادة)؛ المولاة للمؤمنين والمعاداة للكافرين. سيكون هذا البحث -وإن شاء الله تعالى- على الترتيب التالي:

- مقدمة مهمة تشمل التنبيه والتركيز على بعض النقاط التي لابد أن نسترجعها معًا خلال البحث.
- ثم بعد ذلك نعرّف مصطلحًا مهمًا يتكرر معنا كثيرًا في بحثنا، وننقل كلام أهل العلم في تعريفهم لهذا المصطلح، ألا وهو (**الطاغوت**)، ماذا قال أئمتنا الكرام في تعريفهم لمعنى الطاغوت.
- ثم بعد ذلك نعرِّف الولاء والبراء لغةً واصطلاحًا.
- ثم نتكلم عن منزلة الولاء والبراء من الدين؛ من معنى الدين، ومن مضمون الشهادتين، ومن التوحيد ومن العبودية ثم أخيرًا من الإيمان.
- ثم نتكلم بعد ذلك عن الولاء والبراء في القرآن الكريم، في كتاب ربنا الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
- ثم نتكلم عن الولاء والبراء في السنة النبوية الشريفة.
- ثم نتكلم بعد ذلك عن الولاء والبراء في سيرة الأنبياء والمرسلين.
- ثم نتكلم عن نماذج قرآنية في الولاء والبراء.
- ثم نتكلم -إن شاء الله- عن الولاء والبراء في سيرة سلفنا الصالح، الذي ندعي الانتساب إليهم، لنرى البون الشاسع بين ما كانوا عليه وبين ما صرنا نحن إليه، ونرى كيف أن العقيدة عندهم لا تعني جملًا منمقة وإنما تعني أول ما تعني واقعًا عمليًا يراه كل إنسان بعينيه.
- ثم بعد ذلك نتكلم عن بعض مظاهر مولاة الكافرين وحكم هذه المظاهر.
- ثم نتكلم عن بعض مظاهر البراءة من الكافرين. [٢] [٣]

وفي ثنايا الحديث تأتي معنا فوائد جمّة لا يستغني عنها أي مسلم فضلًا عن مجاهد.

---

[٣] **الملفات التي بين يدينا لا تتحدث إلا عن الفقرة الأولى فقط من المواضيع التي ذكرها الشيخ.**

خامسًا: أهمية موضوع الموالاة والمعاداة:

وقبل أن نشرع في المراد وفي تحقيق المقصود مستمدين العون منه وحده -سبحانه وتعالى-، نجيب على سؤال، وإن كانت الإجابة التفصيلية ستأتي معنا في خلال ثنايا هذا البحث؛ لماذا الحديث عن المولاة والمعاداة؟

فنقول حتى نريح أقوامًا يقولون لنا: "لماذا تتحدثون دائمًا عن الحاكمية وعن الطواغيت وعن الموالاة والمعاداة والولاء والبراء وهذه المواضيع التي لا تجلب لكم إلا المشاكل؟ ولماذا لا تتحدثون عن الطهارة والصلاة والزكاة والصيام وكل هذه الأمور التي لا تكرس عناءً ولا تسبب تعًبا ولا نصبًا؟"

فنقول للمنكر وإن كان إنكاره مما يستدعي العجب الشديد، ولو صدر هذا الإنكار من رجل عاميّ لاستُقبح منه، فما بالك أن يصدر ممن ينتسب إلى العلم أو يدعي هذا في خاصة نفسه؟

فنقول: التوحيد أولًا، ومن لم يحقق الأصل فلا يسلم له الفرع والله، وإن ظن أنه سلم له، وهو لن يعرف النتيجة إلا في الآخرة، ويوم الندم ويوم ولات حين مناص.

نقول التوحيد أولًا؛ ولكن نقصد التوحيد بمفهومه الشامل بكلياته دون تبعيض ودون الفصام النكد الذي ابتلينا به من ضمن ما ابتلينا به في واقعنا المعاصر، ومن لم يحقق الأصل تحقيقًا يقينيًا فلن يسلم له الفرع مهما علا وارتفع.

فالتوحيد هو أول دعوة الأنبياء والمرسلين، وفي الحديث الصحيح المتفق عليه عند الشيخين عن ابن عباس -رضي الله عنهما- في قصة بعث النبي -صلى الله عليه- وسلم معاذ بن جبل معلمًا وهاديًا وقاضيًا وداعيًا إلى اليمن، أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال لمعاذ: (إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ،فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ) [٣]، وفي لفظ عند الإمام البخاري في صحيحه: (ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) [٣]، وفي لفظ عند البخاري:[٤] (فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى) [٣].. الشهادة، التوحيد، العبادة.

---

[٣] **صحيح البخاري (١٤٥٨)، صحيح مسلم (٣١).**

[٣] **صحيح البخاري (١٣٩٥)**

[٣] **صحيح البخاري (٧٣٧٢)**

والخلل ليس في المعرفة النظرية وإنما في فهمنا لحقيقة هذه الألفاظ، في فهمنها لحقيقة التوحيد، وفي فهمنها لحقيقة الإيمان، وفي فهمنها لحقيقة العبادة، وفي فهمنها لحقيقة الشهادة ولمقتضياتها ومدلولاتها.

والعجب أن هذا المُنكِر الذي ينكر علينا تجده في مقام آخر يتكلم عن التوحيد وأنه أول ما يُبْدأ تصحيحه وأنه الأصل الذي يجب إقامته، ويبدأ يسرد لك الأدلة والتي كلها أدلة صحيحة، أمّا في هذا المقام؛ في هذه الأمور الشائكة عندهم يقول: "لماذا التوحيد؟ ولماذا الحاكمية؟ ولماذا الولاء والبراء؟"، فسبحان الله أليس هو قائل تلك المقولة في مقام آخر!.

القائل واحد والمنكر واحد، ولكنه التبعيض النكد، فالتوحيد الذي يعنيه هو الحديث عن عبادة القبور والطواف بالأضرحة والاستغاثة والنذر، وكل هذه الأمور هي حق ونحن أول مَن يدين الله بها، ولكن الإشكال في التبعيض؛ في أن نقف بالتوحيد عند هذا الحد، وأن لا ننكر صور الشرك العصرية، وأن لا ننكر عبادة القصور كما أنكرنا عبادة القبور، هذا الفصام النكد الذي ابتلي به فئام كثيرون؛ ليسوا من العوام وإنما من طلبة العلم وربما من العلماء.

واستمع للأئمة الأعلام، أعلام الدعوة النجدية في شروحهم لكتاب (التوحيد)، وهي كثيرة ولله الحمد، بداية من (قرة عيون الموحدين)، مرورًا بـ(فتح المجيد)، مرورًا بـ(تيسير العزيز الحميد)، مرورًا بـ(القول السديد)، وانتهاءًا بـ (القول المفيد). استمع إليهم وهم يتكلمون في شرحهم لهذه الجملة من حديث ابن عباس السابق –رضي الله عنهما–:

يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن في شرحه لكتاب (التوحيد) الشرح المختصر (قرة عيون الموحدين) كما جاء في (الجامع الفريد لرسائل التوحيد) صـ ٣١ يقول الشيخ –رحمه الله–: "وفيه دليل أن توحيد العبادة هو أول واجب؛ لأنه أساس الملة وأصل دين الإسلام." . قال تعالى –والكلام للشيخ– {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} ، وانظر لتفسيره لتلك الجملة بهذه الآية الكريمة، فقه أيّما فقه.

---

[٣] كتاب (التوحيد وقرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الأنبياء والمرسلين) للشيخ: عبد الرحمن بن حسن صـ ٣٧، ما ذكره الشيخ المهاجر للكاتب بالاستدلال بآية البقرة فلا يوجد بعد هذا الكلام، ولعله خطأ من الشيخ.

[٣] سورة البقرة الآية (٢٤٥)

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن أيضًا في شرحه الموسع لكتاب التوحيد (فتح المجيد): "وفي رواية: (فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله)؛ وذلك هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، كما قال تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا} ."اهـ . [٨] [٩] [٣] [٣]

ففسر الشيخ قول النبي –عليه الصلاة والسلام–: (فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله) بالكفر بالطاغوت والإيمان بالله، وقدّم اللهُ –سبحانه وتعالى– الكفر بالطاغوت على الإيمان به؛ فهذا هو التوحيد الحقيقي ولكنه يكلف النصب والتعب وربما سجون ومعتقلات وربما أكثر من ذلك.

ويقول الشيخ صاحب المتن؛ محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله–، يقول بعد أن ذكر جملة من الأحاديث التي تأمر بالدعوة للشهادة والتوحيد وبدأ في ذكر فوائد الباب: "فيه مسائل: .. السابعة: كون التوحيد أول واجب. الثامنة: أنه يبدأ به قبل كل شيء، حتى الصلاة." اهـ. [٠] [٤]

والصلاة هي أهم العبادات وأول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة ومع ذلك يقول الشيخ أنه يبدأ بالتوحيد قبل كل شيء حتى الصلاة، فيبدأ بالأمر بالكفر بالطاغوت قولًا وفعلًا وبالإيمان بالله، فإذا سلم له هذا الأصل نبدأ بالفروع، أما أن ننشغل بالفروع والأصل مُنْخَرِم فهذا من السذاجة والبلادة، فهي لن تشفع لصاحبها يوم القيامة، لأننا نتكلم عن أصول الدين وأصل الإيمان وأصل الإسلام وما يدخل به العبد الإسلام. (..)، ثم عاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وكرر هذه المسألة فقال:" الثانية عشرة: البداءة بالأهم– فالأهم." [١] [٤]

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب أيضًا –هذا الرجل الموفق– في رسالة بعنوان (ثلاث مسائل) وهي مطبوعة ضمن (الجامع الفريد لرسائل التوحيد) صـ ٢٦٤، قال الشيخ: "اعلم رحمك الله تعالى أنه واجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلم ثلاث مسائل: (المسألة الأولى): أن الله خلقنا ولم يخلقنا عبثًا، ولم يتركنا هملًا، بل أرسل إلينا رسولًا ومعه كتاب، من أطاعه فهو في الجنة ومن عصاه فهو في النار... (المسألة الثانية): أن أعظم ما جاء به هذا الرسول أن لا يشرك

---

[٣] سورة البقرة الآية (٢٤٥)

[٣] كتاب (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد) للشيخ عبد الرحمن بن حسن، صـ ٨٣.

[٤] كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب ط جامعة الإمام محمد بن سعود صـ ٢٠

[٤] كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب ط جامعة الإمام محمد بن سعود صـ ٢٠

مع الله في عبادته أحد... (المسألة الثالثة): أن من وحّد الله تعالى وعبد الله تعالى لا يجوز له موالاة من حاد الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، والدليل قوله تعالى: {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} " اهـ. [٢] [٤]

فالتوحيد هو أول واجب على العباد؛ كما قال الشيخ حافظ الحكمي في منظومته:

أولُ واجبٍ على العبيدِ مَعرِفةُ الرحمنِ بالتوحيدِ

ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رسالته (معنى الطاغوت ورؤوس أنواعه)، وهي رسالة صغيرة في صفحتين ولكنها لطيفة واسعة المعنى غزيرة الفائدة كبيرة المعنى، وهي مطبوعة في (الجامع الفريد لرسائل التوحيد) صـ ٢٠٥، قال –رحمه الله–: "اعلم رحمك الله تعالى أن أول ما فرض الله على ابن آدم الكفر بالطاغوت والإيمان بالله {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} "اهـ. [٣] [٤]

فأول واجب على العبد هو توحيد الله تعالى بالعبادة، لا النظر كما يقول أرباب الكلام المذموم، ولكنها العبادة بمفهومها الشامل، ورحم الله الشيخ الشنقيطي إذ يقول في تفسيره: "ولا فرق بين من يتبع القوانين الوضعية وبين من يسجد للصنم والوثن، لا فرق بينهم البتة بوجه من الوجوه" . [٤] [٤]

---

[٤] سورة المجادلة الآية ٢٢.

[٤] سورة النحل الآية ٣٦

[٤] يقول الشيخ الشنقيطي كما في (العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير) ٥\٤٤١: " اعْلَمُوا أيها الإخوانُ أن الإشراكَ بِاللَّهِ في حُكْمِهِ والإشراكَ به في عبادتِهِ كلاهما بمعنًى واحدٍ، لا فَرْقَ بينهما ألبتةَ، فالذي يَتْبَعُ نظامًا غيرَ نظامِ اللَّهِ، وتشريعًا غيرَ ما شَرَّعَهُ اللَّهُ، وقانونًا مُخَالِفًا لشرعِ اللَّهِ من وَضْعِ البشرِ، مُعْرِضًا عن نورِ السماءِ الذي أَنْزَلَهُ اللَّهُ على لسانِ رسولِهِ، مَنْ كان يفعلُ هذا هو وَمَنْ يعبدُ الصنمَ ويسجدُ للوثنِ لاَ فرقَ بينَهما ألبتةَ بوجهٍ من الوجوهِ، فَهُمَا واحدٌ، فَكِلاَهُمَا مشركٌ بِاللَّهِ، هذا أَشْرَكَ به في عبادتِهِ، وهذا أَشْرَكَ به في حُكْمِهِ، والإشراكُ به في عبادتِهِ، والإشراكُ به في حُكْمِهِ كِلاَهُمَا سواءٌ " اهـ.

ورحم الله الشيخ عبد الرحمن الدوسري عندما ذكر في (الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة) قاعدة في منتهى النفاسة في معنى الوثنية، وأن الوثنية لا تختص بفترة زمنية ولا بصور من الصور ولا بحجر ولا وثن، ولكن الوثنية لها قواعد حصرها الشيخ في ثلاثة قواعد وجعل منها التشريع بغير ما أنزل الله.[٥] [٤]

نعود لكلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي قال أن أول فريضة فرضها الله على عبادة الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، ثم يأتي من يقول لنا لماذا تتكلمون في العقيدة ولماذا تتكلمون في الحاكمية؟ وهذا في الحقيقة لم يفهم دينه. (..).

[٤] يقول الشيخ عبد الرحمن الدوسري –رحمه– الله في كتابه (الأجوبة المفيدة لمهمات العقيدة) صـ ١٢٨: " إن الوثنية برسمها الخاص وصبغتها الواحدة التي تجمعها هي: (1)تقديس غير الله. (2)أو تحكيم غيره. (3)وتشريع ما هو منافٍ لشرعه الحكيم.
ولكن ليس معنى هذا انحصارها برسم خاص قد انقضى، أو بصبغة واحدة تلبس بها غيرنا ونحن معصومون منها. بل إن فروع هذه القواعد الثلاثة الخبيثة كثيرة جدًا، فكل من تلبّس بشيء منها كان وثنيًا، أو كان فيه من الوثنية بحسبه، مهما كان، وفي أي محيط كان. لأن للإنسان في هذه الحياة وظائف خاصة أوجده الله من أجلها، فإن هو أخل بها أو تجاوزها إلى غيرها أو اعتدى فيها كان ظالمًا باخسًا لحق الله، وفيه من الوثنية بقدر ما ارتكبه."اهـ.

مقدمات لابد منها لفهم مبحث المولاة والمعاداة.

نقول ونشرع مستعينين بالله تعالى في المقصود وفي المراد، وهي مقدمات لابد منها بين يدي بحثنا في المعاداة والموالاة.

المقدمة الأولى: أصل العداوة بين المؤمنين والكافرين وحقيقتها أنها على العقيدة:

معاداة الكافر للمسلمين هي معاداة قدرية لا مفر منها:

يقول المولى –سبحانه وتعالى– في كتابه؛ في محكم التنزيل: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [٦]، فالخلق إنسهم وجنهم ما خُلقوا إلا لعبادة المولى –سبحانه وتعالى–، العبادة بمفهومها الصحيح الشامل.

وفي سبيل تحقيق هذه الغاية وهذا الهدف أقام الله آياته البيّنات الخلقية والشرعية، وأنزل كتبًا، وأرسل رسلًا، وأقام الحجة، كما قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [٧]، فالحجة أقيمت بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

والأمر بالعبادة أمرٌ شرعيّ؛ أي شرعه الله على ألسنة رسله، والأمر الشرعي كما تعلمون يختلف عن الأمر الكوني، فالأمر الشرعي يختص بما يحبه الله ويرضاه، والأمر الكوني يشمل ما يحبه الله ويرضاه وما لا يحبه ويرضاه ولكنه يقع بإرادته، فمشيئته فوق كل مشيئة كما هي عقيدة أهل السنة والجماعة خلافًا للقدرية والجبرية.

فلما أمر الله خلقه بهذا الأمر الشرعي كان منهم من امتثل، وكان منهم من أبى وعصى، وافترق الناس قسمين واختلفوا في هذه الغاية التي خُلقوا من أجلها، ولذلك يقول المولى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (*) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [٨] [٤].

وفي تفسير تلك الآية أقوال مشهورة إلا أن أرجحها ما رجحه ابن كثير، يقول –رحمه الله– في تفسيره: "أيْ وَلَا يَزَالُ الْخُلْفُ بَيْنَ النَّاسِ فِي أَدْيَانِهِمْ وَاعْتِقَادَاتِ مِلَلِهِمْ وَنِحَلِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَآرَائِهِمْ" [٩] [٤].

---

٤ سورة الذاريات الآية ٥٦،

٤ سورة النساء الآية ١٦٥.

٤ سورة هود الآيات ١١٨–١١٩.

ويقول المولى –سبحانه وتعالى– مبينًا هذه الحقيقة؛ حقيقة الاختلاف في الدين والغاية من خلق البشر: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} . فبالفعل لم يؤمن إلا فئة قليلة ٥
اصطفاهم الله وخصّهم بهذه النعمة العظيمة، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ} . ١

فانقسم الخلق إلى مؤمنين وكافرين، وابتدأت هذه العداوة التي كتبها الله على خلقه ابتلاءً لكل طائفة؛ ليبتلي المؤمنين بالكافرين وليبتلي الكافرين بالمؤمنين. قال تعالى: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ} ، فالخصومة على التحقيق[٢] هي في ذات الله –سبحانه وتعالى–. قال تعالى: {إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا} ، فالأجدر بك أن تعادي[٣] من يعاديك، والأجدر بك أن تتخذه عدوًا كما اتخذك هو عدوًا.

وكما قلنا بهذه العداوة يبتلي المولى –سبحانه وتعالى– الفريقين، كما ذكر ذلك في كتابه في قوله تعالى: {ذلك وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ} ، وقال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} ، فهو ابتلاء مقصود مرادٌ[٥] من الله –سبحانه وتعالى– كما في كل أفعاله.

وفي حديث عياض بن حمار –رضي الله عنه– والذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه أن الله –سبحانه وتعالى– قال لنبيه: (إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ) ؛ فينقسم الناس في محمد[٦]–صلى الله عليه وسلم– إلى[٥] فريقين؛ فريق مؤمن مُصدّق وفريق كافر مُكذّب، على اختلاف صور الكفر.

---

٤ تفسير ابن كثير ط دار الكتب العلمية ٤\٣١٠.

٥ سورة يونس الآية ٩٩.

٥ سورة التغابن الآية ٢.

٥ سورة الحج الآية ١٩.

٥ سورة النساء الآية ١٠١

٥ سورة محمد الآية ٤.

٥ سورة محمد الآية ٣١..

٥ صحيح مسلم (٢٨٦٥)

وهذا الابتلاء –كما أسلفنا– حاصلٌ للفريقين؛ الكفار يبتلون المؤمنين ويعادونهم ويحاربونهم وفي المقابل المؤمنون مُطَالبُون شرعًا وعقلًا بدفع هذا العدوان، وبإخضاع الكافرين إلى منهج الله، شاءوا أو أبوا، على التفصيل المعروف في هذا الباب، وعلى التفريق بين الكافر الأصلي وبين المرتد.

وهذا الابتلاء من الكافرين من للمؤمنين —كما أخبر الله تعالى– هو من علامات الإيمان ومن صدق التمسك بهذا الدين، وهو كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن هذا الابتلاء هو طريق الأنبياء والمرسلين.

والسبب الحقيقي لهذا الابتلاء إنما هو هذا الدين الذي يتميز به المؤمن عن الكافر، وإنما هي هذه العقيدة التي يحتفظ بها المؤمن بين جنبيه، مما يوغر صدور الكافرين حقدًا وحسدًا ويتمنون أن يعود المسلم للكفر، كما قال تعالى: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} ، فأصل العداوة وأصل البغضاء هو بسبب هذا الدين[٩] الذي تعتقده وتؤمن به، {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} ، {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} .

فيجب علينا أن نفهم هذه المسألة جيدًا، حتى تستطيع أن تنظر نظرة صحيحة، مبنية على منطلق عقائدي ليس أكثر، وفي نفس الوقت ولأنّ المسألة مسألة دين وعقيدة، ولأن الكفار يفعلون هذا حسدًا من عند أنفسهم، فإن العداوة لا تنقطع بالكلية حتى لو قصّر المسلم بتمسكه بدينه، كما قال تعالى: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} ، فالهدف أن تترك هذا الدين، والهدف أن تنسلخ من[٦] هذه العقيدة فحتى لو قصرت بالتسمك بها فسوف يعادونك، وانظروا للبوسنة وما فُعل فيها، وانظروا إلى بلادنا وما يُفعل بالمؤمنين الموحدين فيها رغم أن فيهم من يقصر في دينه أو في تمسكه بهذه العقيدة.

---

[٥] سورة النساء الآية ٨٩

[٥] سورة الحج الآية ٢٢

[٥] سورة البروج الآية ٨.

[٦] سورة البقرة الآية ٢١٧.

وهنا تحتاج منّا هذه القضية وقفة، الله سبحانه وتعالى يقول: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} [٦]، الهدف من العداوة ليس[١] أن تتنازل لهم عن بعض الأمْر، وليس أن تلتقي معهم في المنتصف، وإن كانت هذه كلها مقصودة ولكنه يحاربك من أجل هدف بعيد، يريد منك أن ترتد كما ارتد أو أن تكفر كما كفر، كما قال تعالى: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} [٢] [٦].

نريد من هذه المسألة أن نلفت انتباه بعض الناس من الذين استمرأوا سياسة المصالح، وسياسة المداهنات، وسياسة التنازلات، ونقول لهم المسألة ليست هكذا، مهما تنازلتم ومهما قدمتم في سبيل إرضائهم فلن يرضوا عنكم حتى ترتدوا عن دينكم، والفرق بين المسلم وبين غير المسلم أن المسلم في جميع تعاملاته ونظراته للأحداث والوقائع ينطلق من كتاب الله وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم-.

ومن ضمن هذه الثوابت التي لا تحتمل التنازل قوله تعالى: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} ، {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} ، فانْتبه أخي واعلم أن ما[٤] تقدمه من تنازلات هي من[٦] دينك، وما تزيدك من الله إلا بعدًا، وفي نفس الوقت لا تحقق منها ولو شيئًا بسيطًا، فلا تظن أنك بهذه الوسيلة ستصل إلى الحكم، أو أنك ستأخذ مساحة واسعة من الدعوة أو غير ذلك من الأمور الموهومة والمصالح المدّعاة، والحقيقة غير ذلك فالطاغوت ليس أبلهًا وإنما يعرف ماذا يفعل، يعطيك قدرًا معينًا من التنازلات حتى يأخذ منك المقابل.

فلتعلم يقينًا أن هذه التنازلات لن تقربك من هدفك ولو شبرًا واحدًا، فالمراد هو الدين ولهو هذه العقيد التي بين يديك فأولى لك -بالإضافة إلى أنه واجب عليه- وأن تتمسك بدينك وأن تعض عليه بالنواجذ، وكما قال ابن المبارك:

نرَقِّعُ دُنيانا بِتَمزيقِ ديننا   فَلا دينُنا يَبقى وَلا ما نُرَقِّعُ

---

[٦] سورة البقرة الآية ٢١٧.
. [٦] سورة النساء الآية ٨٩
[٦] سورة البقرة الآية ٢١٧.
. [٦] سورة النساء الآية ٨٩

وما أصدق هذا البيت على أحوالنا اليوم، فهؤلاء الطواغيت لن تأخذ منهم لا دنيا ولا دين، والمسلم كما قلنا عندما يتعامل مع الأحداث والوقائع يتعامل وله منهج يميزه عن بقية الناس، الاشتراكي يحافظ على مبادئه، والقومي يحافظ على مبادئه، الوطني يحافظ على مبادئه، كل أصحاب نحلة مهما بلغت من الباطل يحافظون على مبادئهم، إلا المنتسبين لهذا الدين سوى فئة ممن رحم الله.

المقدمة الثانية: الولاء والبراء طبيعة المنهج الإسلامي:

نقول الناظر في دين الله الإسلام، وفي هذا المنهج الحق، وفي هذه الرسالة الخاتمة التي ارتضاها الله لعباده وأنزلها من فوق سبع سموات؛ الناظر لها هكذا من أول وهلة يخرج بنتيجة عجيبة؛ يخرج بأن هذا المنهج وأن هذه الرسالة أحكمت بصورة تجعل عقيدة الولاء والبراء أمرًا بدهيًا وأمرًا طبيعيًا يمارسه المؤمن كما يمارس كافة صور التعبد.

الإسلام من أوله إلى آخره، من التوحيد إلى السواك وإلى غير ذلك أحكم بطريقة تجعل عقيدة الولاء والبراء أمرًا طبيعيًا بدهيًا لا يختلف عن أي عبادة يأتي بها المسلم، هذا في الأصل وليس في واقعنا، عند النفوس والقلوب السليمة التي لم تتنجس والأرجاس والأنجاس من الشبهات والشهوات.

وسوف نستعرض استعراضًا سريعًا جدًا وإن كان الأمر يحتاج لتفصيل في كتاب الله وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- لنرى هذه المعاني؛ معالم الصياغة الربانية والتي تجعل عقيدة الولاء والبراء أمرًا بدهيًا تلقائيًا.

الإسلام دين متميز؛ دين يقوم أول ما يقوم على المفاصلة، دين من أوله إلى آخره، في أصول وفي فروعه -وإنا كما لا نأخذ بهذه التقسمة كما قال شيخ الإسلام ولكن نقولها من باب الإفهام- في أصوله وفي فروعه هو دين يأبى التطبيع ويأبى الاختراق بأي منهج من المناهج الأخرى، وإن كانت هذه المناهج سماويّة في أصلها —كما ذكرنا هذه المسألة في باب الحاكميّة- وحتى ولو كانت كتبًا مُحرّفة أو منسوخة.

وكذلك يأبى الإسلام أن يلتقي مع أي منهج من المناهج الأخرى في قليل أو في كثير، حتى يحتفظ باستقلاله وبتميزه وبتلك المفاصلة التي تميزه عن غيره، وليست وظيفة الإسلام أن يصطلح مع الجاهلية، وكل ما هو سوى الإسلام جاهليّ، كما ذكر ذلك الشيخ محمد بن إبراهيم؛ أن القسمة ثنائية؛ إما حق أو باطل، إما شرع وإما هوى، إما إسلام

وإما جاهلية، فكل ما هو سوى الإسلام جاهلي، مهما تَسمّى ومهما تزّين ومهما عُرض بصورة مزركشة مبرقشة خداعًا للناس وتمويهًا عليهم، ومهما ظهر للناس والعقول أن فيه خير وفيه صلاح وهكذا.

الإسلام يوم أن جاء لم تكمن وظيفته أن يصطلح مع الجاهلية، لم تكن هذه وظيفته يوم جاء، ولن تكون هذه وظيفته اليوم، ولن تكون كذلك في المستقبل، فالإسلام ديني تغييريّ وليس دين تسييري، الإسلام ما جاء ليساير الواقع وإنما جاء ليغير الواقع، الإسلام ما جاء ليصطلح مع الأهواء والشبهات والشهوات التي تعجب الناس وتوافقهم، وإنما جاء ليزيل كل هذا الركام البشري وليضع منهجًا جديدًا ومبادئَ جديدةً من عند الله العزيز الحكيم.

هذه وظيفة الإسلام؛ منهج تغييري وليس منهجًا اصطلاحيًا يصطلح مع الأهواء والآراء ليصل معها إلى حل مشترك كما نسمع من كثير من الناس يقولون: "نريد أن نصل معهم لصيغة مشتركة"، فأي اشتراك تريد؟

هذا الاشتراك يعني أن تتنازل عن دينك وتأخذ من باطلهم، كما كتب أحدهم (اشتراكية الإسلام) وكما كتب أحدهم (ديمقراطية الإسلام)، وكما كتب أحدهم (قومية الإسلام)! وعلم الله تعالى أن دين الإسلام بريءٌ من هذا الدَّجل والاختلاط الذي ما أنزل الله به من سلطان.

واستمع لسيد –رحمه الله– ذلك الداعية الموفق، يقول في (معالم في الطريق): "إن الإسلام لا يقبل أنصاف الحلول مع الجاهلية. لا من ناحية التصور، ولا من ناحية الأوضاع المنبثقة من هذا التصور .. فإما إسلام وإما جاهلية. وليس هنالك وضع آخر نصفه إسلام ونصفه جاهلية، يقبله الإسلام ويرضاه ..."اهـ. (..)

وقارن هذا الكلام بما تسمعه عن اشتراكية الإسلام وعن ديمقراطية الإسلام والدعوة للحل الوسط والحكومة المشتركة إلى غير هذه النماذج الغثّة. والذي يفهم هذه القاعدة التي شرحها سيد يفهم بها كثيرًا من الأمور التي تحصل الآن، ويوفقه الله لفهم الحق، فيعرف أين الحق وأين الباطل، وستتضح لنا هذه الأمور أيما اتضاح في استعراضنا لأحداث السيرة. (..).

ولو طبق الإسلام كله إلا جزئية واحدة فهذه جاهلية، كما قال تعالى: {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ} [٥]، وكما قال تعالى في مسألة جزئية: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ} [٦]، وكما قال تعالى: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} [٦]. يقول شيخ الإسلام ابن[٧] تيمية "فَإِذَا كَانَ بَعْضُ الدِّينِ لِلَّهِ وَبَعْضُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ وَجَبَ الْقِتَالُ حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ."اهـ [٨]. (..) [٦]

وانظر للربط العجيب عند أئمتنا الذين يدّعي الانتساب إليهم والتمسك بهم كثير من الأدعياء، وقارن بين أقوالهم وبين حقيقة واقع الأدعياء، فانظر لهذا الربط العجيب بين كون الدين كله لله وبين عقيدة الولاء والبراء فيما ذكره الإمام ابن القيم –رحمه الله– في كتابه (أحكام أهل الذمة)، –ونحن لنا وقفة مع أحكم أهل الذمة في عصرنا ومع انتكاسات لا يقول بها شرع ولا عقل قال بها أعلام في عصرنا–، يقول ابن القيم بين عقيدة الولاء والبراء وبين كون الدين كله لله، يقول ابن القيم:

"فَإِنَّ مِنْ كَوْنِ الدِّينِ كُلِّهِ لِلَّهِ إِذْلَالَ الْكُفْرِ وَأَهْلِهِ وَصَغَارَهُ وَضَرْبَ الْجِزْيَةِ عَلَى رُءُوسِ أَهْلِهِ، وَالرِّقِّ عَلَى رِقَابِهِمْ فَهَذَا مِنْ دِينِ اللَّهِ وَلَا يُنَاقِضُ هَذَا إِلَّا تَرْكُ الْكُفَّارِ عَلَى عِزِّهِمْ وَإِقَامَةِ دِينِهِمْ كَمَا يُحِبُّونَ بِحَيْثُ تَكُونُ لَهُمُ الشَّوْكَةُ وَالْكَلِمَةُ." اهـ. (..)

وانظر كيف قال الشيخ أنه من الدين أن تذل الكفار وتذيقهم الصغار وتغلظ عليهم كما قال تعالى: {وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} أمر الله لنا نحن إرهابيون: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ[٧] قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} نحن بالفعل إرهابيون، بأمر الله لنا نحن إرهابيون، ونحن[٧] مأمورون بإرهاب لأعداء الله وللطواغيت

[٦] سورة يونس الآية ٣٢.
[٦] سورة المائدة الآية ٥٠.
[٦] سورة البقرة الآية ٨٥.
[٦] مجموع الفتاوى ٢٨\٥١١
[٦] كتاب (أهل الذمة) لابن القيم ١\١١١
[٧] سورة التوبة الآية ٧٣.
[٧] سورة الأنفال الآية ٦٠.

وللمرتدين، شاء من شاء وأبى من أبى، فهذا ديننا ولا نستحي من ديننا قيد أنملة، والذي يستحي من دينه فليكبّر على نفسه أربعة وليراجع إيمانه.

فنحن مأمورون بضرب الجزية على أهل الكفر، واليوم ضربت الجزية على رؤوس المسلمين، طوعًا وكرهًا، منهم من أعطاها طائعًا مختارًا، ومنهم من أعطاها مكرهًا، بسبب هؤلاء الأنجاس الذي يتربعون على بلادنا، والواقع خير شاهد لمن سلمت فطرته، الذي ينظر هكذا بدون نقاش ودون دليل، ضع يدك عشوائيًا في أي موضع في الخريطة؛ ترى أن الدم الإسلامي أرخص دم وأن العِرض الإسلامي أرخص عِرض، ولكن النفوس ماتت.

رُبَّ وامُعتصماه انطلقتْ مِلء أفواه السَّبايا اليُتَّمِ

لامَسَتْ أسماعهم لكنّها لم تلامس نخوة المعتصمِ

لاقت أسماعنا ولا ننكر والحجة قائمة علينا يوم القيامة وسوف نُسأل. فالمعتصم المبتدع الذي قال بخلق القرآن وهي بدعة من أشد البدع التي ظهرت في التاريخ الإسلامي، -نقر بذلك ونؤمن بالله وأسمائه وصفاته صدقًا وعدلًا، حتى لا يتهمنا الذي بعّضوا الدين وبعّضوا الاعتقاد-، ورغم أنه مبتدع إلا أنه كان صاحب نخوة، أما اليوم فلا دين ولا نخوة ولا رجولة!.

ولنا عود على بدء وتفصيل موسع لهذه المسألة. إذًا الإسلام لا يقبل التطبيع والالتقاء، وهذه مسألة واضحة.

المقدمة الثالثة: الشريعة الإسلامية تغرس روح التميز والمفاصلة في المؤمن:

كذلك الناظر إلى شريعتنا يجد أن تلك الشريعة حرصت أيّما حرص على غرس روح التميز والمفاصلة، كما حرصت كذلك إيجاد وصنع حاجز وجدار وسياج نفسي بين المسلمين وبين الكافرين، سدّ منيع يقف بين المسلم وبين الكافر، حفاظًا على عقيدة الموالاة والمعاداة، وسدًا لذريعة تَمَيُّع هذه العقيدة في نفس المؤمن، حتى تظل عقيدة صافية نقية، يمارسها المؤمن بصورة تلقائية.

وهذا أمر واضح جدًا؛ سواء في الكتاب أو في السنة، وسواء في الأصول أو في الفروع، وسواء في العقائد أو في العبادات أو في المعاملات، وحتى في العادات والتقاليد، وحتى في أبسط ألوان النشاط البشري حرصت الشريعة أن تميز

المسلم عن غيره من الكافرين، أن يكون له سمت خاص، هدي خاص، طريقة خاصة في حياته في كل صغيرة وفي كل كبيرة في هذه الحياة يتميز المؤمن عن غيره من الكفار والمشركين.

وهذه المسألة –غرس روح التميز والمفاصلة– تمت عبر عدة وسائل:

١ – غرس روح الاستعلاء الإيماني في المؤمن:

الأولى غرس روح الاستعلاء الإيماني؛ فحرصت الشريعة أن تزرع في نفس المؤمن الاستعلاء، أنه هو الأعلى لإعلاء الله له على سائر الخلق من غير المسلمين، كما قال تعالى في كتابه: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [٢] وليست للنصارى وليست لليهود وليست للمرتدين وليست لأذنابهم، وإنما لله ولرسوله وللمؤمنين، فهذه الآية تغرس وتزرع بصورة واضحة في نفس المؤمن العزة وتضع فيه الاستعلاء الإيماني، ولا تنظر لواقعنا المرير، ولا تنظر لتلك النفوس المريضة التي رضت بالذلة.

فَمَنْ يَهُنْ يسهُلِ الهوانُ عليهِ ... ما لجُرُحٍ بميّتٍ إيلامُ

يقول تعالى مبينًا لهذا الاستعلاء الإيماني عند المؤمنين بقوله: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} ، فلو أن هذه الآية كانت[٣] عند أمة أخرى لطاروا بها ولعدوا بها على سائر البشر، فبنص تلك الآية نحن خير أمة، نحن أمة مبتعثة، كما قال ربعيّ –رضي الله عنه–: "اللَّهُ ابْتَعَثْنَا لِنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ، وَمِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا إِلَى سِعَتِهَا، وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ" . [٤]

فهذه الآية كافية لتجعلك تهيم فخرًا واعتزازًا بدينك لا بغير ذلك، كما قال عمر بن الخطاب: (نحن قوم أعزنا الله بالإسلام) فتفتخر وتتعالى على الناس بهذا الدين ليس أكثر، فهذه الأمور كفيلة أن تصنع حاجزًا وسدًا منعًا بين المسلم وبين غيره من أصناف الكفرة والمشركين.

---

[٧] سورة المنافقون الآية ٨

[٧] سورة آل عمران الآية ١١٠.

[٧]انظر (البداية والنهاية) لابن كثير، طبعة دار الفكر ٣٩\٧.

كذلك يقول الله تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[٧] ، فحتى في وقت الاستضعاف وغياب النصر والتمكين المؤمن هو الأعلى.

٢- النهي عن التشبه بالكفار:

وسيلة أخرى لغرس روح التميز والمفاصلة حفاظًا على عقيدة الموالاة والمعاداة، النهي عن التشبه بالكفرة والمشركين، كما قال تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}[٧] ، فهذه الآية خرجت في معرض الذم والتحذير من اتباع سبيل الكفرة والمفسدين.

وقال تعالى: {وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ}[٧] ، وقال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[٧] . وقال تعالى كذلك في معرض النهي عن التشبه بالمشركين والكفار: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}[٧] . [٩] [٧]

وانظر لفقه شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو يتكلم عن هذه الآية في كتابه الشهير (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم)، ومجرد اسم الكتاب آية، يقول -رحمه الله-: "فقوله: ولا يكونوا مثلهم نهي مطلق عن مشابهتهم" اهـ.

وهناك قصة أو موقف لابد لنا أن نقف معها ولو قليلًا، وهي قصة تحويل القبلة الشريفة، تعلمون جميعًا أن المسلمين كانوا يتجهون إلى المسجد الأقصى، وكان اليهود يتجهون أيضًا في صلاتهم إلى المسجد الأقصى، وانظر لخطورة المشابهة، وموضوع المشابهة موضوع مستقل يحتاج أن نفرده بالبحث.

---

[٧] سورة آل عمران الآية ١٣٩

[٧] سورة النساء الآية ١١٦.

[٧] سورة الأعراف الآية ١٤٢

[٧] سورة الجاثية الآية ١١٨.

[٧] سورة الحديد الآية ١٦

[٨] كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) لابن تيمية ٣٩٠\١٢

فرغم العداء الواضح بينهم وبين النبي –صلى الله عليه وسلم– من أول يوم دخل فيه المدينة، ورغم تكفيرهم الواضح في كتاب الله، إلا أن اليهود كان يستدلّون بتوجُّه المسلمين إلى قبلتهم أنهم على الحق، ويقولون: "لولا أننا على الحق ما اتجه المسلمون إلى قبلتنا"، فانظروا إلى الكيد الشيطاني.

وهذه المقولة يرددها كل صاحب بدعة وصاحب ضلالة عندما يرى المسلمين يوافقونه على بعض ضلالته فيقول: "لولا أنني على الحق ما وافقوني.."، وليتقي الله في دينه، وليحذر مشابهة الكفار والمرتدين، وليحذر كذلك من أي يلتقي معهم ولو في جزئية واحدة؛ فإنهم يأخذون من دينك وإن زعمت أنك تأخذ من دنياهم.

كان اليهود يتخذون من هذه المسألة حجة لهم في عدم إيمانهم، يقولون: "لولا أننا على الحق ما اتبع المسلمون قبلتنا"، واشتد الأمر على النبي –صلى الله عليه على آله وسلم–، حتى كان عليه السلام يُقلّب وجهه في السماء ويتمنى أن يأتيه الوحي ليغير القبلة إلى القبلة التي يحبها ويرضاها وهي الكعبة، وبالفعل جاء الأمر الرباني بتغيير القبلة والعودة إلى القبلة الأولى؛ إلى مكة المكرمة إلى البيت الحرام.

يقول تعالى: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} [٨] ثم قال تعالى: {لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [٩] أي حتى لا يحتج اليهود بأنكم توافقونهم في دينهم بأنكم تتجهون إلى قبلتهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم) في شرحه لهذه الآية:

"قال غير واحد من السلف معناه: لئلّا يحتج اليهود عليكم بالموافقة في القبلة، فيقولون: قد وافقونا في قبلتنا، فيوشك أن يوافقونا في ديننا، فقطع الله بمخالفتهم في القبلة هذه الحجة... فبين سبحانه أن من حكمة نسخ القبلة وتغييرها مخالفة الناس الكافرين في قبلتهم، ليكون ذلك أقطع لما يطمعون فيه من الباطل، ومعلوم أن هذا المعنى ثابت في كل

---

[٨] سورة البقرة الآية ١٥٠.

[٨] سورة البقرة الآية ١٥٠.

مخالفة وموافقة، فإن الكافر إذا اتُّبع في شيء من أمره كان له في الحجة مثل ما كان أو قريب مما كان لليهود من الحجة في القبلة."اهـ.[٨] [٣]

نشرح هذه المقولة؛ ابن تيمية يقول: أنّ الحكمة من تغيير القبلة هي قطع الحُجّة على المشركين وعلى الكفار، وهذه الحجة موجودة في كل أمر أُمرنا فيه بمخالفة الكفار والمشركين وعدم موافقتهم؛ لأن كل كافر أو مشرك توافقه في مسألة ولو في جزئية صغيرة يأخذ من تلك الموافقة نفس الحجة التي أخذها اليهود من موافقة المسلمين لقبلة اليهود، فلا بد من قطع هذا الباب، ومن قطع هذه الحجة، وأن لا نوافقهم وأن نخالفهم في كل أمر وإن كان في نظرنا أنه قليل.

يقول سيد –رحمه الله– في تفسيره (في ظلال القرآن): "والجماعة المسلمة التي تتجه إلى قبلة مميزة يجب أن تدرك معنى هذا الاتجاه. إنّ القبلة ليست مجرد مكان أو جهة تتجه إليها الجماعة في الصلاة. فالمكان أو الجهة ليس سوى رمز. رمز للتميز والاختصاص. تميز التصور، وتميز الشخصية، وتميز الهدف، وتميز الاهتمامات، وتميز الكيان.." اهـ. [٤]

وهذا الأمر تجد له أمثلة كثيرة في سنة النبي –صلى الله عليه وسلم–، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– أمرنا في جملة كثيرة من الأوامر بمخالفة المشركين واليهود والنصارى والمجوس والأعاجم، حتى في أمور هي عند الناظر أمور بسيطة، إلا أن الشارع يعلم أن المخالفة في حد ذاتها مقصودة، إحياءً وتنبيهًا وإيقاظًا لروح الموالاة والمعاداة، وحفظًا لهذه العقيدة من الانحراف، وإقامةً لذلك السد المنيع بينك وبين المشركين على اختلاف أصنافهم.

وفي الحديث المتفق عليه عن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: («لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ»، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى قَالَ: «فَمَنْ») .[٨] [٥]

---

[٨] كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) لابن تيمية ١\١٠٠

[٨] (في ظلال القرآن) ليسد قطب ١\١٢٩،

[٨] صحيح البخاري (٣٤٥٦)، صحيح مسلم (٢٦٦٩).

ولهذا الحديث رواية أخرى في صحيح الإمام البخاري عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أنّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ» فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: «وَمَنِ النَّاسُ إِلَّا أُولَئِكَ». [٦] [٨]

يقول الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل في كتابه (من تشبَّه بقوم فهو منهم) ص١٣ : "والسنن هنا التي أخبر بها النبي –صلى الله عليه وسلم– قال أهل العلم: تشمل العقائد والعبادات والأحكام والعادات والسلوك والأعياد." اهـ. فهذه الأمور لا يخرج منها نوع من أنواع النشاط البشري منها؛ فكلها من السنن التي حذرنا النبي –صلى الله عليه وسلم– أن نتشبه فيها بالفرس والروم واليهود والنصارى وغيرهم من المشركين.

ومن ذلك قوله –صلى الله عليه وسلم– فيما أخرجه عنه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داوود في سننه بإسناد جيد، والحديث عن ابن عمر –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال (مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ) . [٧]

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في شرحه لهذا الحديث في (اقتضاء الصراط المستقيم): " وهذا الحديث أقل أحواله أن يقتضي تحريم التشبه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم كما في قوله: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}"ا هـ.

إذًا أقل درجات المشابهة وأقل أحوالها هو التحريم، والأمور التي أُمرنا فيها مخالفة الكفرة باختلاف أجناسهم كثيرة جدًا؛ منها ما ذكره الشيخان عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه–: (جُزُّوا الشَّوَارِبَ، وَأَرْخُوا اللِّحَى خَالِفُوا الْمَجُوسَ) .وفي الصحيحين (خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ: وَفِّرُوا اللِّحَى، وَأَحْفُوا الشَّوَارِبَ) ، ومنها كذلك ما ذكره أبن داوود في سننه عن [٩] شداد بن أوس عن النبي –صلى الله عليه وسلم–: (خالِفُوا اليهودَ فإنَّهم لا يُصَلُّون في نِعالِهم ولا خِفافِهم) ، فهذه [١] أمثلة سريعة تناسب المقام.

---

[٨] صحيح البخاري (٧٣١٩).

[٨] مسند الإمام أحمد (٥١١٥)، سنن أبي داوود (٤٠٣١) الجامع الصغير للسيوطي (١١٠٩٤)،

[٨] كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم) لابن تيمية ١\٢٧٠.

[٨] صحيح مسلم (٢٦٠)

[٩] صحيح البخاري (٥٨٩٢)، صحيح مسلم (٢٥٩).

[٩] سنن أبي داوود (٦٥٢)وصحيح ابن حبان (٢١٨٦).

وكذلك ما ذكره الإمام مسلم عن عمرو بن العاص –رضي الله عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (فَصْلُ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَكْلَةُ السَّحَرِ) [٩]، ومنها ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي –صلى الله عليه وسلم–: (إِنَّ اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى لاَ يَصْبُغُونَ، فَخَالِفُوهُمْ) [٩]، وهو الذي رواه الترمذي برواية أخرى: (غَيِّرُوا الشَّيْبَ وَلاَ تَشَبَّهُوا بِاليَهُودِ.) [٩].

ومنها كذلك النهي عن السدل في الصلاة وأن يغطي الرجل فاه، كما ذكره أبو داود والترمذي وأحمد والحاكم [٩]، ومنها كذلك النهي عن الخصر في الصلاة [٩] –وهذه الأمور مرت معنا عند حديثنا عن بعض الأخطاء الفقهية المتعلقة بالطهارة والصلاة –. قالت عائشة –رضي الله عنه– فيما أخرجه البخاري وعبد الرزاق في مصنفه أن هذا فعل اليهود [٩]. وكذلك أمرنا النبي –عليه الصلاة والسلام– أن نخالفهم وأن نترك هذه الصفة أثناء صلاتنا.

وغير هذه المسائل كثيرة جدًا، كلها تدل دلالة واضحة على أن مطلق المخالفة هي مقصودة في شرعنا، وأن المخالفة مقصودة بحد ذاتها في شرعنا، لإقامة هذا الحاجز النفسي بيننا وبين المشركين؛ حفظًا لعقيدة الموالاة والمعاداة أن يصيبها خدش ولو قليل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية تبريرًا لهذا الجمع الكبير من الأوامر بمخالفة المشركين في (اقتضاء الصراط المستقيم): "أن المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر، وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة... فإذا كانت المشابهة في أمور دنيوية، تورث المحبة والموالاة لهم، فكيف بالمشابهة في أمور دينية؟ فإن إفضاءها إلى نوع من الموالاة أكثر وأشد، والمحبة والموالاة لهم تنافي الإيمان." اهـ. (..) [٩].

---

[٩] صحيح مسلم (١٠٩٦).

[٩] صحيح البخاري (٣٤٦٢) صحيح مسلم (٢١٠٣).

[٩] سنن الترمذي (١٧\٥٢).

[٩] عن أبي هريرة: (أن النبي –صلى الله عليه وسلم– نهى عن السدل في الصلاة، وأن يغطي الرجل فاه) رواه أبو داود (٦٤٣)، ولأحمد(٧٩٣٤) والترمذي (٣٧٨)..

[٩] عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: (نُهِيَ عَنِ الخَصْرِ فِي الصَّلاَةِ) صحيح البخاري (١٢١٩)، صحيح مسلم (٥٤٥).

[٩] أخرج البخاري (٣٤٥٨) عن عائشة –رضي الله عنها–: (كَانَتْ تَكْرَهُ أَنْ يَجْعَلَ يَدَهُ فِي خَاصِرَتِهِ وَتَقُولُ: إِنَّ اليَهُودَ تَفْعَلُهُ).

[٩] كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) لابن تيمية ١\٥٤٩ .

وضع هذا الكلام وقس عليه هذه الدعاوى التي نسمعها اليوم، والتي سيكون لنا معها حديث تفصيلي، حول التقارب بين الأديان، وحول الدين الإبراهيمي، وحول السلام العالمي، وحول الأخوة الإنسانية، وإلى سائر هذا الخبل.

قال سيد قطب –رحمه الله–: "نهى عن تشبه في مظهر أو لباس. ونهى عن تشبه في حركة أو سلوك. ونهى عن تشبه في قول أو أدب.. لأن وراء هذا كله ذلك الشعور الباطن الذي يميز تصورًا عن تصور، ومنهجًا في الحياة عن منهج، وسمة للجماعة عن سمة. ثم هو نهي عن التلقي من غير الله ومنهجه الخاص الذي جاءت هذه الأمة لتُحقِّقَه في الأرض. نهي عن الهزيمة الداخلية أمام أي قوم آخرين في الأرض. فالهزيمة الداخلية تجاه مجتمع معين هي التي تتدسس في النفس لتقلد هذا المجتمع المعين. " اهـ. (....).[٩] [٩]

ولك أن تنظر في الشروط العمرية المنسوبة للخليفة الثاني الفاروق –رضي الله عنه–، والتي اشترطها على أهل الكتاب ليعطي لهم عقد الذمة، وهذه الشروط في زمننا الحاضر ضرب من الخيال، بل ربما لا تأتي لأحدنا في المنام، ولكن ليس ذلك على الله بعزيز.

استمع لتلك الشروط العمرية والتي هي غاية في التميز وغاية في المفاصلة، وغاية في تحقيق الموالاة والمعاداة، ذكرها شيخ الإسلام ابن القيم تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (أحكام أهل الذمة) ، وكذلك ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (الصارم المسلول على شاتم الرسول) صـ ٢٠٨، وذكرها كذلك في (اقتضاء الصراط المستقيم) ، وأشار إليها كذلك في مجموع فتاواه ٢٨\٦٥٤، وهي طويلة جدًا نأخذ ما يتعلق بتميز المسلم حتى في الأمور البسيطة، وانتبه إلى أن عمر بن الخطاب جعل المخالفة لأي شرط من تلك الشروط مناقضًا لعهد الذمة، فمجرد أن يرتدي النصراني قلنسوة انتقض عهده وحلّ منه ما يحل للمحارب، حلّ منه الدم والمال والعرض، فيقتل ويسلب ماله ويسبى عرضه، وكذلك مجرد أن يلبس الصليب، وإنّا لله وإنا إليه راجعون فيما آلت إليه أحوال المسلمين، ننقل من تلك الشروط:

---

[٩] (في ظلال القرآن) لسيد قطب ١\١٢٨.

[١] انظر كتاب (أحكام أهل الذمة) لابن القيم ٣\١١٥٩

[١] انظر كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) لابن تيمية ١\٣٦٥

"وَأَلَّا نَضْرِبَ بِنَوَاقِيسِنَا إِلَّا ضَرْبًا خَفِيًّا فِي جَوْفِ كَنَائِسِنَا، وَلَا نُظْهِرَ عَلَيْهَا صَلِيبًا،وَلَا تُرْفَعَ أَصْوَاتُنَا فِي الصَّلَاةِ وَلَا الْقِرَاءَةِ فِي كَنَائِسِنَا فِيمَا يَحْضُرُهُ الْمُسْلِمُونَ، وَأَلَّا نُخْرِجَ صَلِيبًا وَلَا كِتَابًا فِي سُوقِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَلَّا نُخْرِجَ بَاعُوثًا –قَالَ: وَالْبَاعُوثُ يَجْتَمِعُونَ كَمَا يَخْرُجُ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ الْأَضْحَى وَالْفِطْرِ– وَلَا شَعَانِينَ، وَلَا نَرْفَعَ أَصْوَاتَنَا مَعَ مَوْتَانَا، وَلَا نُظْهِرَ النِّيرَانَ مَعَهُمْ فِي أَسْوَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَلَّا نُجَاوِرَهُمْ بِالْخَنَازِيرِ وَلَا بِبَيْعِ الْخُمُورِ، وَلَا نُظْهِرَ شِرْكًا، وَلَا نُرَغِّبَ فِي دِينِنَا وَلَا نَدْعُوَ إِلَيْهِ أَحَدًا، وَلَا نَتَّخِذَ شَيْئًا مِنَ الرَّقِيقِ الَّذِي جَرَتْ عَلَيْهِ سِهَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَأَلَّا نَمْنَعَ أَحَدًا مِنْ أَقْرِبَائِنَا أَرَادُوا الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْ نَلْزَمَ زِيَّنَا حَيْثُمَا كُنَّا، وَأَلَّا نَتَشَبَّهَ بِالْمُسْلِمِينَ فِي لُبْسِ قَلَنْسُوَةٍ وَلَا عِمَامَةٍ وَلَا نَعْلَيْنِ وَلَا فَرْقِ شَعْرٍ وَلَا فِي مَرَاكِبِهِمْ، وَلَا نَتَكَلَّمَ بِكَلَامِهِمْ وَلَا نَكْتَنِيَ بِكُنَاهُمْ، وَأَنْ نَجُزَّ مَقَادِمَ رُءُوسِنَا، وَلَا نَفْرُقَ نَوَاصِيَنَا، وَنَشُدَّ الزَّنَانِيرَ عَلَى أَوْسَاطِنَا، وَلَا نَنْقُشَ خَوَاتِمَنَا بِالْعَرَبِيَّةِ، وَلَا نَرْكَبَ السُّرُوجَ، وَلَا نَتَّخِذَ شَيْئًا مِنَ السِّلَاحِ وَلَا نَحْمِلَهُ وَلَا نَتَقَلَّدَ السُّيُوفَ.... ضَمِنَّا لَكَ ذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِنَا وَذَرَارِيِّنَا وَأَزْوَاجِنَا وَمَسَاكِينِنَا، وَإِنْ نَحْنُ غَيَّرْنَا أَوْ خَالَفْنَا عَمَّا شَرَطْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَقَبِلْنَا الْأَمَانَ عَلَيْهِ فَلَا ذِمَّةَ لَنَا، وَقَدْ حَلَّ لَكَ مِنَّا مَا يَحِلُّ لِأَهْلِ الْمُعَانَدَةِ وَالشِّقَاقِ" اهـ. (....). [٢]

فهذه الأمور البسيطة ينتقض بها عهد الذمة وتحل بها الدم والمال والعرض، أمّا اليوم فعند هؤلاء لا ينقض عهد الذمة، وأصلًا لا يوجد عهد ذمة، وخيط العنكبوت الذي يتمسكون به هو خيط باطل، فالجهة التي أعطته ليست جهة شرعية، والصيغة التي كُتب بها ليست شرعية، فضلًا عن ذلك فعد الذمة ينتقض بهذه الأمور البسيطة؛ أن يظهر دينه أو يعلق صليب أو يخالط المسلمين في أسواقهم أو يتكلم بكلامهم أو يتكنى بكناهم.

أما اليوم فعند هؤلاء المحاربة الصريحة لله ورسوله لا تنقض عهد الذمة، قتل المسلمين في البوسنة لا ينقض عهد الذمة، قتل المسلمين في الصومال لا ينقض عهد الذمة، قتل المسلمين في أريتريا وأوجادين لا ينقض عهد الذمة، حماية اليهود والتوطين لملكهم لا ينقض عهد الذمة، التحكُّم في أرضي المسلمين لا ينقض عهد الذمة، فسبحان الله أيّ ذمّة هذه؟!

قال ابن القيم: "وَشُهْرَةُ هَذِهِ الشُّرُوطِ تُغْنِي عَنْ إِسْنَادِهَا، فَإِنَّ الْأَئِمَّةَ تَلَقَّوْهَا بِالْقَبُولِ وَذَكَرُوهَا فِي كُتُبِهِمْ وَاحْتَجُّوا بِهَا، وَلَمْ يَزَلْ ذِكْرُ الشُّرُوطِ الْعُمَرِيَّةِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَفِي كُتُبِهِمْ، وَقَدْ أَنْفَذَهَا بَعْدَهُ الْخُلَفَاءُ وَعَمِلُوا بِمُوجَبِهَا." اهـ.. [٣]

---

[١] انظر نص هذه العهدة العمريّة في السنن الكبرى للإمام البيهقي (١٨٧١٧).

[١] كتاب أحكام (أهل الذمة) لابن القيم ٣\١١٦٤

وقال ابن تيمية في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم) عن هذه الشروط بعد أن ذكرها: "وهذه الشروط أشهر شيء في كتب الفقه والعلم، وهي مجمع عليها في الجملة، بين العلماء من الأئمة المتبوعين، وأصحابهم، وسائر الأئمة، ولولا شهرتها عند الفقهاء لذكرنا ألفاظ كل طائفة فيها. وهي أصناف؛ الصنف الأول: ما مقصوده: التمييز عن المسلمين، في الشعور واللباس والأسماء والمراكب والكلام، ونحوها؛ ليتميز المسلم عن الكافر، ولا يتشبه أحدهما بالآخر في الظاهر، ولم يرضَ عمر –رضي الله عنه– والمسلمون بأصل التمييز، بل بالتميز في عامة الهدي، على تفاصيل معروفة في غير هذا الموضع. وذلك يقتضي: إجماع المسلمين على التميز عن الكفار ظاهرًا، وترك التشبه بهم.." اهـ. [٤]

فهذه الشروط كما ذكر ابن تيمية هي أمر مجمع عليه بين الأئمة وبين فقهائنا الأعلام، ولا يُعرف لها مخالف إلا في هذا العصر من بعض الناس.

وهناك موقف لطيف نختم به، وهذا الموقف على طرافته وعلى بساطته إلا أنه مؤشر على المقصود، وهذه القصة ذكرها الدارقطني في سننه بسند مرفوع [١]، وذكرها كذلك محمد بْن هارون الرُّوياني في مسنده (مسند الروياني) [٦] من حديث عائذ بن عمر المدني بسند حسن، وكذلك هذه القصة مذكورة في فوائد أبي يعلى من هذا الطريق؛ طريق عائذ بن عمرو: (أَنَّهُ جَاءَ يَوْمَ الْفَتْحِ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَوْلَهُ أَصْحَابُهُ، فَقَالُوا: "هَذَا أَبُو سُفْيَانَ وَعَائِذُ بْنُ عَمْرٍو"، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هَذَا عَائِذُ بْنُ عَمْرٍو وَأَبُو سُفْيَانَ، الْإِسْلَامُ أَعَزُّ مِنْ ذَلِكَ الْإِسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى".) [٧] [١٠]

والصحابة –رضي الله عنه– لم يفعلوا أمرًا كبيرًا وإنما قدموا اسم الكافر وقتها سفيان على المسلم، ومع ذلك لم يقرها النبي –عليه الصلاة والسلام– ولم يمررها، رغم أن الموقف بسيط في أذهاننا لا يستحق كل هذا، ولكن ميزان الشرع يختلف عن ميزان عقولنا، فقال النبي عليه –الصلاة والسلام–: (هَذَا عَائِذُ بْنُ عَمْرٍو وَأَبُو سُفْيَانَ، الْإِسْلَامُ أَعَزُّ مِنْ ذَلِكَ الْإِسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى).

---

١ كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) لابن تيمية ١\٣٦٥.

١ سنن الدارقطني (٣٦٢٠)

١ مسند الروياني حديث رقم (٧٨٣).

١ السنن الكبرى للبيهقي (١٢١٥٥).

الذي يقرأ هذه الجملة الأخيرة يظن أن الأمر جلل، ويظن أن مصيبة حصلت، ويظن أن عقيدة الصحابة في الولاء والبراء قد أصابها انخرام، والأمر أبسط من ذلك؛ هم فقط قدموا اسم الكافر على المسلم، إلا أن المسألة لا تحتمل، والمسألة حتى في تلك الجزئيات الصغيرة لا بد أن تكون واضحة ولا تحتمل الدخن، فحتى تقديم الاسم لا يجوز.

وشبيه من هذا الموقف موقف آخر حصل في غزو أحد يوم أن اعتلا بعض المشركين على المسلمين في شعبة من الشعب، فقال النبي –عليه الصلاة والسلام– كما ذكر ابن إسحاق في سيرته: (اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا) [١]، فحتى علو المكان لا ينبغي للكافر.

وفي آخر الغزوة حصل موقف آخر شبيه بهذا الموقف، ذكره الإمام البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب –رضي الله عنه– [١] أنه عندما انتهت الغزوة وأصاب المسلمين ما أصابهم، صعد أبو سفيان على رأس جبل فقال: (أُعلو هبل)، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم– للصحابة: (أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ)، قَالُوا: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقُولُ؟) قَالَ: (قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ)، فقال أبو سفيان: (إِنَّ لَنَا العُزَّى وَلاَ عُزَّى لَكُمْ)، فَقَالَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟)، قَالُوا: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقُولُ؟) قَالَ: (قُولُوا اللَّهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ).

فالذي يدّعي أنه مؤمن، وأنه متمسك بهذا الدين حقًا وصدقًا، وأنه من أهل العقيدة السمحة يجب عليه أن يبرهن برهان عمليًا على ما يدعي، وأن يأتي بالترجمة العملية وبالمعيار الحقيقي على ما يقول.

في وقت عزّة الأندلس كان النصارى يرسلون أبنائهم لتلقي العلم في ديار الإسلام والمسلمين، فكان النصارى يخافون من هذه المسألة فهم أيضًا عندهم عقيدة ولاء وبراء، وهم أيضًا يخافون أن تنخرم عقيدة الولاء والبراء عندهم فيصبح النصراني يحب المسلمين فيتأثر بهم فيدخل في دينهم.

---

[١] **سيرة ابن هشام ط دار السقا ٢\٨٦**

[١] **صحيح البخاري(٣٠٣٩، ٤٠٤٣).**

فحفاظًا على هذه العقيدة عندهم وإقامة لحاجز نفسي بين أبنائهم وبين المسلمين أصدرت الكنيسة قرارًا، فاستمع لنص هذا القرار كما ذكره الدكتور طه جابر فياض العلواني في تقديمه لكتاب (النهي عن الاستعانة والاستنصار في أمور المسلمين بأهل الذمة والكفار)[1]، فجاء في الصفحة ٨:

تقول الكنيسة في قرارها: "إن هؤلاء الشبان الرقعاء الذي يبدءون كلامهم بلغات بلادهم ثم يكملون كلامهم باللغة العربية لنعلم أنهم تعلموا في مدارس المسلمين، هؤلاء إن لم يكفوا على ذلك فستصدر الكنيسة قرارًا بالحرمان...."اهـ.

هذا عند النصارى أما عند اليهود فالمسألة أكبر من أن نتكلم فيها، فعقيدة اليهود قائمة على أنها ديانة خاصة بهم، وأن الله –تعالى عما يقولون– إله قومي خاصُ بهم، وينظرون للأمم الأخرى أنهم في مصاف الكلاب والحمير الحيوانات ، وهذه مسألة معروفة مشهورة عند اليهود، كل هذه الأمور حتى يستعلوا بأنفسهم عن باقي الخلق، فهم يرون أنفسهم أنهم شعب الله المختار، وأنهم فوق الأمم، كل هذا لغرس في أبنائهم وفي نفوسهم الاستعلاء. (....).

٣– التأكيد على عقيدة الولاء البراء بالنصوص الشرعية المتتابعة:

لو نظرنا في جملة الشريعة الإسلامية –في الكتاب والسنة وكذلك في آثار السلف الصالح والتابعين لهم بإحسان– فلن نجد حكمًا أو موضوعًا أو مسألة ما لها من الأدلة التي تقررها بشتى الوجوه كما لهذه المسألة، ولا يفوق تلك المسألة تقريرًا وتحقيقًا وإثباتًا ودفعًا للشبهات والشهوات إلا تقرير الوحدانية لله –سبحانه وتعالى–.

يقول الشيخ حمد بن عتيق وهو من أعلام الدعوة النجدية، يقول في كتابه النفيس في هذا الباب (سبيل النجاة والفكاك في موالاة المرتدين وأهل الإشراك)، وعنوان الكتاب يحتاج منّا لوقفات، (..) يبيّن أن موالاة الكفار منزلق لو انزلقت فيه فكبّر على نفسك أربعًا وعدها على التحقيق من الأموات، والشيخ قدّم المرتدين على أهل الكفر الأصليين، وسيأتي معنا شرح مُفصّل لهذه المسألة بأن المرتد بالإجماع أعظم عقوبة من الكافر الأصلي، وأن موالاة المرتد تقدح في الدين أكثر من موالاة الكافر الأصلي، وسيأتي معنا كلامهم الذي لا يحتمل شبهة ولا مداراة ولا تأويل.

---

[1] الكتاب للشيخ مصطفى بن محمد الوردانى ومن تقديم الدكتور طه جابر فياض العلواني، فالكلام منقول من كلام للشيخ العلواني في تقديمه للكتاب.

والكتاب في الأصل كُتِب تبرؤًا من موالاة المرتدين وليس من موالاة الكفار الأصليين، فالكتاب كتب تبرؤًا من الدولة التركية التي كفرها هؤلاء الأئمة الأعلام، رغم أن ما أتت به من مكفرات لا تذكر بجانب تلك المكفرات الواقعة في يوم الناس هذا، أمور بسيطة جدًا ورغم ذلك كفّرها هؤلاء الأئمة الأعلام، بل كفّروا عددًا من كبار الشخصيات في عصرهم ممن وقفوا بجانبهم وجادلوا عنهم. وسيأتي معنا تتمة الشرح في هذه المسألة.

يقول الشيخ في ذلك الكتاب صفحة ١٤ في الطبعة المستقلة، وصفحة ٣٦٣ من مجموعة التوحيد، يقول –رحمه الله–: "فأما معاداة الكفار والمشركين فاعلم أن الله –سبحانه وتعالى– قد أوجب ذلك، وأكد إيجابه وحرّم موالاتهم وشدد فيها، حتى إنه ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد، وتحريم ضده"اهـ.

فهذا استقراء من الشيخ فيقول أن المسألة الثانية التي احتلت مكانة كبيرة من كتاب الله عرضًا وتقريرًا وتفصيلًا وردًا على الشبهات والشهوات هي مسألة الموالاة والمعاداة؛ فتأتي مباشرة في المرتبة الثانية بعد تقرير الوحدانية لله –سبحانه وتعالى–. فهي مسألة كبرى.

والعجب أن هذه المسألة التي قلنا عنها هذا نجده اليوم في خبر كان، مسألة مهجورة إلا من رحم الله، فلا يتكلم عنها إلا قليل من قليل، وأقل منه الذي يعمل بها، مع أن هذه القضية هي أصل الأصول. فهذه المسألة هي مسألة مهجورة في هذا العصر إلا من رحم الله، فهي مهجورة نظريًا وأشدّ منها تطبيقًا عمليًا وممارسةً في واقع الناس.

فلماذا كان اهتمام القرآن بهذه المسألة على هذه الدرجة؟

نقول على التحقيق أن قضية الموالاة والمعاداة هي الترجمة العملية للتوحيد والإيمان، وديننا دين يقوم على العمل، وما العلم إلا للعمل، والانشغال بالوسيلة عن الغاية ضلال مبين، فالموالاة والمعاداة هي الترجمة العملية الصادقة للإيمان والتوحيد، فالمسألة ليست دعاوى وليست أقوالًا وليست خطبًا رنّانة، المسألة {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ}[١]، كان الرسول –عليه الصلاة والسلام– كما تقول عائشة –رضي الله عنه– في الصحيح (خلقه القرآن)، كان قرآنًا يمشي بين الناس.

---

[١] **سورة الزخرف الآية ٤٣.**

وللأسف أن مصطلح التوحيد ومصطلح العقيدة صارت معنى مبهمًا، فصارت العقيدة مسألة غير مُحددّة الملامح، كلمة مبهمة لا تعرف لها صورة ظاهرة تحكم بها، وصارت عبارة عن مجموعة من الجمل المنمّقة والخطب الرنانة، وصارت عبارة عن فصاحة اللسان، وعذوبة البيان، وسلاسة التعبير، إلى غير هذه الأمور التي نراها، فترى بلاغة منمقة وفصاحة عجيبة، بل ربما لا تجد مثل أحدهم في فصاحته وفي قوة تعبيره وفي بيانه.. إلخ. وتسمع كلامًا أجمل ما يكون عن العقيدة وعن التوحيد وعن الإيمان وعن آثار تلك العقيدة في قلوب أصحابها وأنها أقوى من ألف مهند، وأنها كذا وكذا، فترتج وتهتز المنابر.

وانظر إلى واقع المتكلم والمتحدث، وابحث مليًا عن آثار تلك العقيدة في سلوكه وفي تصرفاته، ترى العجب العجاب! ترى التناقض الصارخ، ترى الانفصام النكد الذي بُلينا به في واقعنا، فأين تلك العقيدة التي يتحدث عنها وأين أثرها في واقعه ومن سلوكه ومن تصرفاته العملية والتي في الأصل في التدليل على صحة الإيمان وعلى صحة هذه العقيدة؟

فترى موالاة واضحة للكفار على سائر أصنافهم أصليين كانوا أو مرتدين، ترى ركونًا واضحًا للظالمين، ترى مشاركة للطغاة المتجبرين الذي أقل أحوالهم –عندهم– أنهم ظلمة فاسقون، فترى مولاة لا يختلف فيها اثنان، وترى مشاركة لهم في موائدهم وفي احتفالاتهم وفي أعيادهم وفي برلماناتهم، بل ترى في أحيانًا كثيرة مشاركة لهم في تقرير قوانينهم، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فأين العقيدة من أفعال هذا الذي يدعيها؟ وهل العقيدة قول ودندنة؟ هذا لا نعرفه في ديننا الذي يقوم أصلًا على العمل، والدعاوى إن لم تقم عليها بينات أصحابها أدعياء، فالدعوى عريضة والعجز ظاهر.

نقطة أخرى؛ كثير من الملتزمين –إلا من رحم ربه– في بداية التزامه ينشغل بأمور تأتي متأخرة عن قضية التوحيد والعقيدة وعن تحقيق معنى الكفر بالطاغوت والإيمان بالله والذي هو أول واجب، بل قدم الله هذا الواجب على الإيمان به فقال: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} . [٢]

فكثير من الملتزمين يبحث عن مسالك أخرى الواجب أن تأتي متأخرة بعض موضوع التوحيد والكفر بالطاغوت، فلا يبدأ بالأهم، ونحن نقلنا كلام أهل العلم في وجوب البدء بالتوحيد، والبدء بالأهم فالمهم. فيبدأ ينصرف إلى الدعوة،

[١] سورة البقرة الآية ٢٥٦

ويبذل في ذلك جهدًا كبيرًا جدًا، والشيطان يمد له، لأن الشيطان يريد أن يصده عن فرض الفروض وأصل الأصول وأقوى فروض الأعيان، وابن القيم جعل من أساليب الشيطان صرف الإنسان من الفاضل إلى المفضول، فما بالك عن صرف الإنسان عن أصل الأصول وعن أفرض الفروض العينية، فيظن بذلك أنه يحسن صنعًا.

وبعضهم يتجه إلى طلب العلم؛ طلبًا نظريًا بحتًا، هذا أولًا، وطلبًا مبعّضًا؛ فيدرس مفاهيم العقيدة كما يحب، يدرس المفاهيم التي لا تسبب له أي تعب ولا أي نصب، كما قال أحدهم أن هذه المفاهيم تسبب له مشاكل فلا ندرسها ولا نتعرض لها!

فأصل الأصول يُعرض عنه لأنه يسبب مشاكل، لأنه ملة إبراهيم، ولأنه يسبب البلاء والذي هو المعيار الصادق لتقييم الناس ولتقييم التمسك بهذا الدين، معيار لا يحابي أحدًا ولا يجامل، فينشغل بالتخريج والتحقيق والتصنيف وهذه الأمور، أما أصل الأصول فيُعرض عنه ولا يتعرّض له.

ومن ثمّ يأتي البون الشاسع فلا يعرف هذه المسائل التي هي أوجب الفرائض وإذا عرضت عليه يشمئز قلبه وينفر منه ويحسب أنها من دين الخوارج والتكفيريين وكذا، فلا يقبلها فضلًا عن أن يفهمها وفضلًا عن أن يهتم هو بها ويدرسها، وتكون النتيجة أن يصبح هو في جانب وهي جانب آخر. وكما قيل: الإنسان عدو ما يجهل.

واللهِ إن واقعنا أمر من المر، ولو أردنا أن نذكر أمثلة واقعية عن كل ما نذكر لطال بنا المقام، ولكن كل لبيب بالإشارة يفهم، فيصبح هذا الملتزم أجنبيًا عن أصل أصول دينه، لا يعرفه فضلًا عن أن يفهمه فضلًا عن أن يتقبله. ثم تأتي المرحلة الثانية؛ أن يحارب أهله وينابذهم العداء ويصفهم بأشنع الألقاب والأسماء، ويظن أنه من المحسنين وهو عند الله من المبعَدين.

يقول سيد قطب في كتابه (معالم في الطريق) صـ٤٠: "إن العقيدة الإسلامية يجب أن تتمثل في نفوس حية، وفي تنظيم واقعي، وفي تجمع عضوي، وفي حركة تتفاعل مع الجاهلية من حولها، كما تتفاعل مع الجاهلية الراسبة في نفوس أصحابها... ومرة أخرى أكرر أن التصور الاعتقادي يجب أن يتمثل من فوره في تجمع حركي، وأن يكون التجمع الحركي في الوقت ذاته تمثيلًا صحيحًا وترجمة حقيقية للتصور الاعتقادي. وأشد فاعلية، وأكثر انطباقًا على الفطرة البشرية من منهج صياغة النظريات كاملة مستقلة وتقديمها في الصورة الذهنية الباردة للناس." اهـ. (....)

وسيأتي معنا صفة الكفر بالطاغوت، وأنه لا يكتفى فيها أبدًا باعتقاد القلب ولابد فيها من التصريح كما قال تعالى: {وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ}[1] ، هي عقيدة ظاهرة متحرّكة وليست عقيدة كامنة في القلوب فقط وإنما لابد أن تظهر آثارها على الجوارح تطبيقًا سلوكًا وحياةً وصراعًا. ومن أراد دين الأنبياء والمرسلين فليوطِّن نفسه، أما من أراد دين غير دين الإسلام فليتخذ له أي دين شاء. وسيأتي معنا كلام للشيخ محمد بن عبد الوهاب من أنفس ما يكون.

وقفة لمراجعة ما سبق من الدورة:

(...) اليوم -إن شاء الله- نحاول أن نُجمل تلك الدروس السابقة، حتى نصل السابق باللاحق، فنقول: تكلمنا أولًا عن الأمر القدري الذي كتبه الله على عباده بانقسامهم إلى فريقين؛ فريقًا هدى وفريقًا حق عليهم الضلالة، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير، فالله -عز وجل- قدّر في حكمته أن ينقسم الناس في دينه إلى قسمين، قسم يؤمن بهذا الدين وقسم يكفر به، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ}[1] .

ثم بانقسام الخلق إلى مؤمن وكافر انعقدت العداوة بينهما، كما قال تعالى: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ}[1] ، والخصمان هما فريق أهل الإيمان وفريق أهل الكفر والإلحاد.

بهذا الانقسام وبتلك العداوة بدأ الصراع بين الحق والباطل، يَبْتلي الله -سبحانه وتعالى- كل فريق بالفريق الآخر؛ فيبتلي المؤمنين بالكفار، محنةً ومنحةً لهم ورفعةً لدرجاتهم واختبارًا لمدى تمسكهم وثباتهم على هذا الطريق، كذلك يبتلي الكُفّار بالمؤمنين بالمؤمنين؛ محاربةً، وجهادًا، ومنابذةً في سبيل الله، وأخذًا على أيديهم، وسوقًا لمن دخل منهم في دين الله إلى الجنة. فالابتلاء حاصل من الطرفين، قال تعالى: {وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ}[1] ، وكما قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}[7] ، وفي حديث

---

[1] سورة الممتحنة الآية ٤.
[1] سورة التغابن الآية ٢.
[1] سورة الحج الآية ٢٠.
[1] سورة محمد الآية ٤

عياض بن حمار –رضي الله عنه– الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه أن الله تعالى قال لنبيه –عليه الصلاة والسلام–: (إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك) [١] ، فالابتلاء كما قلنا حاصُل من الطرفين. الله –عز وجل– يسلط الكفار على المؤمنين تسليطًا قدريًا؛ فيعادونهم كما أخبر عن ذلك في آياته المحكمات، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا} ، وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [٢] ، وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا} [١] ، والجعل الذي جعله الله تعالى هنا هو جعل قدري.[٢]

وصور معاداة الكافرين للمؤمنين ثابتة لا تتغير على مدار تاريخ الأنبياء والمرسلين، نفس الصور فالباطل لا يأتي بجديد، قال تعالى: {مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ} ، نفس الكلام الذي كان يقال للأنبياء من قبل محمد هو نفس الكلام الذي قيل لمحمد، صلى الله وسلم وبارك عليهم أجمعين، وهو نفس الكلام الذي يقال لأتباع الأنبياء والمرسلين.

وقال تعالى: {كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ} ، فقلوب أهل الكفر والإلحاد كلها [٢] متشابهة، وكذلك أقوالهم وأفعالهم متشابهة، فالكفر ملة واحدة في القديم والحديث.

وهذه المعاداة من الكافرين للمؤمنين ليس لها إلا سبب واحد وهو العقيدة، فالذي فرّق بين النّاس هو الدين كما في الحديث الصحيح (وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ) [٢] ؛ فبعثته –صلى الله عليه وسلم– افترق الناس، ففرّق –عليه الصلاة والسلام– بين المرء وأبيه، وبين الأخ وأخيه، وبين المرء وزوجه، وهذا الفرق هو الفرق الديني والرابطة العقدية، قال تعالى مخبرًا ومبينًا هذه الحقيقة بصورة واضحة {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ

---

[١] سورة محمد الآية ٣١.
[١] صحيح مسلم (٢٨٦٥).
[١] سورة الفرقان الآية ٣١
[١] سورة الأنعام الآية ١٤٣
[١] سورة الأنعام الآية ١٢٣.
[١] سورة فصلت الآية ٤٣.
[١] سورة البقرة الآية ١١٩.
[١] صحيح البخاري (٧٢٨١).

الْحَمِيدِ} فالآية مصرّحة موضّحة[5] أن السبب الحقيقي لتلك العداوة[6] إنّما هو الإيمان بالله من[1] المؤمنين والكفر بالله من الكافرين.

وقال تعالى: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} ، فالذي يغيظهم والذي[6] يحقدون بسببه على المؤمنين[1] إنما هو الإيمان، ولذلك هم يتمنّون أن يكفر المسلمون ويرتدّوا على أعقابهم كما ارتدّوا هم، فهم يحاربوك لأجل هذا الدين الذي بين جنبيك ولأجل هذه العقيدة التي عندك، وقال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ} ، فهو لا يستطيع الإيمان[1] ولا يستطيع الإسلام ولا يستطيع[1] التمسك بجملة الأوامر والنواهي المنزلة من عند العزيز الديّان، ومن ثم فهو يحقد عليك ويحسدك ويتمنّى أن تكفر كما كفر.

فالكافر يعادي المؤمن لإيمانه، وكلما ازداد المؤمن إيمانًا ازداد نصيبه من عداوة الكافرين، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ) . [8] [2]

وهذه المعاداة من الكافرين للمؤمنين لا تنقطع بالكليّة طالما المؤمنون على إيمانهم ولو مع التقصير، وانتبه لهذه النقطة؛ لأن هدف الكفار من هذه المعاداة لا ينتهي عند حد التقصير، ولا ينتهي عند حد الذنوب، ولا ينتهي عند حد التراخي الجزئي عن الالتزام بهذا الدين، وإنما ينتهي عند حد الردة والانسلاخ التام من هذا الدين، كما قال تعالى: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} ، فهم لا يرضون عنك إلّا بالردّة والكفر الصراح. [2] [1]

ويقول تعالى في آية أخرى: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} ، فهدفهم النهائي لقتالك هو ارتدادك عن هذا الدين، فأنت وإن قصّرت في الالتزام بالإسلام إرضاءً لهم أو دفعًا لمفسدة أو جلبًا

---

[1] سورة البروج الآية ٨.
[1] سورة النساء الآية ٨٩
[1] سور البقرة الآية ١٠٩
[1] السنن الكبرى للنسائي (٧٤٤٠).
[1] سورة النساء الآية ٨٩.
[1] سورة البقرة الآية ٢١٧

لمصلحة كما تتوهم، فهم لن يرضوا عنك أيضًا، ولن يرضوا عنك إلّا بالانسلاخ الكامل عن هذا الدين بنص قوله تعالى: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} [١] [٣]

فعلى العاقل أن يتدبر في هذه الآية وأن يعلم بل يتيقن أن ما يقدمه لهم من تنازلات محاولًا بذلك استرضاءهم لن يقدم ولن يؤخر شيئًا في العداوة، فالعداوة قائمة إلّا إذا ارتدّ عن دينه.

إذًا الهدف من تلك المعاداة هو انتزاع هذا الدين من قلبك ومن عقلك، وإن ما تقدمه لهم من تنازلات وما ترتكبه من تقصير لن يقدم ولن يؤخر شيئًا في نزع هذه العداوة؛ لأن تلك العداوة لها هدف نهائي يسعى إليه أصحابها وهو الكفر والانسلاخ بالكلية من هذا الدين.

وفي المقابل؛ كما سلّط الله الكافرين على المؤمنين تسليطًا قدريًا، كذلك أمر الله المؤمنين بمعاداة ومحاربة الكافرين أمرًا شرعيًا، قال تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} ، فالله –عز وجل– أمر المؤمنين بدفع الكفار والمشركين بكافة [١]
صور الدفع، التي من أعظمها وأظهرها الجهاد في سبيل الله، والذي يعتبر هو الصورة الظاهرة لدفع الكفار والمشركين.

الولاء والبراء طبيعة المنهج الإسلامي:

قلنا من قبل أن الله –سبحانه وتعالى– صَبَغ هذا الدين بصبغة تجعل هذا الدين لا يقبل التميع والانصهار مع غيره من المناهج والأديان الأخرى {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً} ، وجعل تعالى المُسلمَ الّذي يلتزم بهذا الدين [٣]
يأتي بعقيدة الولاء والبراء بصورة طبيعية بدهيّة، فهي عقيدة تتلاءم تمامًا مع المنهج الرباني، بل تُعتبر الترجمة العملية للتمسك بهذا الدين، فالإسلام يَأبَى أن يَلتقي مع غيره من المناهج ولو في جزئية من الجزئيات؛ لأن له تصورًا مستقلًا في سائر مناحي الحياة، تصورًا كاملًا له خصائص متميزة.

---

[١] سورة البقرة الآية ٢١٧

[١] سورة الحج الآية ٤٠

[١] سورة البقرة الآية ١٣٨

وليست وظيفة الإسلام أن يصطلح مع الأوضاع الجاهلية السائدة والمنتشرة في مجتمع من المجتمعات أو في زمن من الأزمان، وإنما شرع الله –سبحانه وتعالى– لنا هذا الدين ليكون حاكمًا لا محكومًا، وليكون مُهيمِنًا لا مُهَيْمَنًا عليه.

والله –عز وجل– جعل القسمة ثنائية لا تحتمل التبعيض، لو كانت القسمة تحتمل التبعيض لقلنا أنه من الممكن أن يلتقي الإسلام مع غيرها في جزئية أو في جزئيات متعددة، قال تعالى: {فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ} ؛ فحصر [4] المناهج في منهجين؛ حق وباطل، الحق هو دين الله الخاتم: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} ، وقال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} . فينبّني على ذلك أن كلّ دين غيْر الإسلام هو في [3] قسم الباطل.

وليس من الممكن أن يلتقي الحق مع الباطل ولو في جزئية من الجزئيات، وهذا أمر بدهي عقليّ، بل هو أمر مقرر في الفطر والنفوس السليمة، ومن ثمّ فالإسلام بطبيعته لا يقبل الالتقاء مع غيره من المناهج، أيًا كانت تلك المناهج، ولو كان ذلك في جزئية واحدة من الجزئيات.

فبلغة العصر نقول أنّ الإسلام لا يقبل أنصاف الحلول، ولا يظهر إلا بصورته الكاملة، وليس هنالك من وضع آخر نصفه إسلام ونصفه جاهلي، وإنما لابد أن يكون الدين كله لله، كما قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} . [7] [3] [1]

ويقول تعالى مبينًا أن هذا التبعيض أمر مرفوض، وأن هذا التبعيض –على التحقيق– يُصنف من ضمن الجاهلية، يقول تعالى: {وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ} . [8]

---

[1] **سورة يونس الآية ٣٢**

[1] **سورة آل عمران الآية ٨٥**

[1] **سورة آل عمران الآية ١٩**

[1] **سورة الأنفال الآية ٣٩**

[1] **سورة المائدة الآية ٤٩**

فالإسلام لا يقبل أن تأخذ بعضه وتترك بعضه، حتى وإن كان الجزء المأخوذ هو القسم الأكبر، وحتى إن كان الجزء المتروك ١% من الإسلام، فالإسلام لا يعترف بتلك القسمة، وإنّما تلك القسمة هي –على التحقيق– من دين الجاهلية، وإنّما الصورة الصحيحة التي يعترف بها الإسلام هي أن يكون الدين كله لله.

بناءً على ذلك نجد أن الشريعة الإسلامية حرصت أشدّ الحرص على غرس روح التميز والمفاصلة في نفوس أتباعها، وهذا الحرص تمثل لنا في جملة من الأمور، نستطيع أن نُرجعها إلى ثلاثة أمور:

أولًا: غرس روح الاستعلاء؛ فالشريعة الإسلامية تغرس في نفوس أتباعها أنهم الأعلون، وأنهم أصحاب العزة والرفعة في الدنيا والآخرة، وإن كانوا في موازين الناس ظاهريًا في محن تتوالى، قال تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [1]، وقال تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [1]، وقال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [1].

وغير ذلك الآيات والأحاديث التي تغرس في نفس المؤمن روح الاستعلاء الإيماني، فالمؤمن يستعلي على الناس؛ لا كِبرًا منه، ولا استخفافًا منه لهم، وإنما هو استعلاء الإيمان، الاستعلاء بهذا الدين الذي أكرمه الله به، كما قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [1]؛ وهذه الخيرية ليس لها مِن مصدر إلا دين الله –سبحانه وتعالى–.

ثانيًا: وسيلة أخرى غرست بها الشريعة روح التميز هي النهي عن التشبه بالكافرين؛ هناك جملة من النصوص تنهى المسلمين عن التشبه بغير المسلم من أصناف الكافرين على اختلاف أديانهم ومللهم ونحلهم.

كما قال –صلى الله عليه وسلم– في الحديث المتفق عليه: (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: اليَهُودَ، وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟) [1].

---

[1] سورة آل عمران الآية ١٣٩.

[1] سورة المنافقون الآية ٨.

[1] سورة آل عمرن ١١٠.

[1] سورة آل عمرن ١١٠.

[1] صحيح البخاري (٣٤٥٦)، صحيح مسلم (٢٦٦٩).

فالحديث ينهى بمضمونه عن اتباع سنن اليهود والنصارى وعن التشبه بهم، وقد بيّن أهل العلم أن هذا النهي يشمل التشبه بهم في العقائد وفي العبادات وفي الأحكام والعادات والسلوك والأعياد ، كل هذه الميادين ينهى الله –سبحانه وتعالى– أن يتشبه فيها المسلم بغير المسلم سواء كان يهوديًا أو نصرانيًا أو غيره من أصناف الكفرة والمشركين.

وفي الحديث الصحيح والذي أخرجه السيوطي في الجامع الصغير وصححه الألباني، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده، وأبو داود في سننه؛ حديث ابن عمر –رضي الله عنهما– عن النبي –صلى الله عليه وسلم–: (مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ) [١] [٤] [٤] .

وهناك أمور كثيرة نهت فيها الشريعة الإسلامية عنها التشبه بالكافرين، منها مثلًا حلق اللحية، والحديث أخرجه الإمام مسلم عن أبي هريرة في صحيح مسلم [١] ، ومنها عدم الصلاة بالنّعال فأُمرنا بالصلاة بالنعال مخالفًا لليهود، ومنها الأمر بالمحافظة على أكلة السَّحر، إلى غير ذلك من الأمور التي ركّزت فيها الشريعة على مخالفة المشركين وعدم التشبه بهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية مبينًا ومعلّلًا الأمر بمخالفة المشركين والنهي عن مشابهتهم، يقول –رحمه الله– في (اقتضاء الصراط المستقيم):

"أن المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر، وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة... فإذا كانت المشابهة في أمور دنيوية، تورث المحبة والموالاة لهم؛ فكيف بالمشابهة في أمور دينية؟ فإن إفضاءها إلى نوع من الموالاة أكثر وأشد، والمحبة والموالاة لهم تنافي الإيمان." اهـ [٦]

وانتبه لهذا الربط البديع بين المشابهة في الظاهر وما تؤدي إليه من الموالاة والقلبية، وهذا أمر ملاحظ ومشهود، فالإنسان لو أصبح يقلد إنسانًا آخرًا وتشبّه به في أقواله وفي أفعاله أو في ملبسه وفي زيه وفي عاداته، فهذه المشابهة لن تقف عند حد الظاهر، وإنما هي وسيلة تؤدي إلى المشابهة الباطنية إن استمر المرء عليها، فينتقل الحال من مشابهة

---

[١] **مسند الإمام أحمد (٥١١٥)، سنن أبي داوود (٤٠٣١)، الجامع الصغير للسيوطي (١١٠٩٤)،**

[١] **صحيح مسلم (٢٦٠)**

[١] **كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) لابن تيمية ١\٥٤٩** .

ظاهرية إلى مشابهة باطنيّة، فتورث الميل القلبي إلى هؤلاء الكفار والمشركين، بل قد تورث الميل القلبي لمعتقداتهم ولأديانهم ولنظرياتهم وأفكارهم، وأنت ترى هذا الأمر لدى فئام من المسلمين الذين انتسبوا إلى الغرب أكثر من انتسابهم إلى الدين الإسلامي، فصاروا قلبًا وقالبًا مع أعداء هذا الدين.

فالمشابهة في الظاهر تؤدي إلى المودة المحبة والموالاة القلبية، وكذلك المحبة في الباطن تؤدي إلى المشابهة في الظاهر؛ فلو أن إنسانًا يحب إنسانًا في قلبه ويميل إليه، تجده يحاول جاهدًا أن يتشبه به في مأكله ومشربه وفي ملبسه، كما يحاول المؤمن التشبه بالنبي —صلى الله عليه وسلم– من منطلق حُبّك له وأنك تتخذه أسوةً وقدوةً وإمامًا، ومن ثمّ فأنت تحاول جاهدًا أن تحذوا حذوه في كل صغير وكبيرة؛ في مأكله وفي مشربه وفي ملبسه وفي منامه وفي كلامه وفي ضحكه، إلى سائر تلك الأمور.

وهذا في الأمور الدنيويّة فكيف في الأمور الدينيّة؟ فلو تشبهت بالكفرة في أمور الدنيا كالأكل والشراب والملبس والمشية والكلام؛ فهذه المشابهة تؤدي بك في النهاية —إن استمريت بها– إلى أن تشابههم في قلبك بحبك ومودتك، فكيف إذا تشبهت بهم في أمور دينية؛ في العقائد وفي العبادات وفي الأحكام؟ فالأمر هنا أخطر وأعظم، والموالاة القلبية أقرب للعبد من تلك الأمور الدنيوية، فيسهل على العبد أن يميل إليهم بقلبه وأن يسارع حبًا واعتناقًا لأفكارهم ولمبادئهم ولأديانهم.

يقول سيّد –رحمه الله– مبينًا ومعلّلًا لنهي الشرع عن التشبه بالكفّار والمشركين: "نهي عن تشبه في مظهر أو لباس. ونهي عن تشبه في حركة أو سلوك. ونهي عن تشبه في قول أو أدب.. لأن وراء هذا كله ذلك الشعور الباطن الذي يميز تصورًا عن تصور، ومنهجًا في الحياة عن منهج، وسمة للجماعة عن سمة. ثم هو نهي عن التلقي من غير الله ومنهجه الخاص الذي جاءت هذه الأمة لتُحقِّقَه في الأرض. نهي عن الهزيمة الداخلية أمام أي قوم آخرين في الأرض. فالهزيمة الداخلية تجاه مجتمع معين هي التي تتدسس في النفس لتقلد هذا المجتمع المعين." اهـ.[٧]

---

[١] (في ظلال القرآن) لسيد قطب ١\١٢٨.

فالإسلام يريد منك أن تكون متميزًا في كل كبيرة وفي كل صغيرة، أن تكون أيها المسلم متميزًا في فكرك وفي شعورك وفي معتقدك، وكذلك تكون متميزًا في حركتك وفي سكنتك وفي مأكلك وفي مشربك وفي ملبسك، وفي كل هذه الأمور التي ربما قد ترى بعضها أمرًا بسيطًا لا يستحق، إلّا أنّ الإسلام ينظر لها بمعيار آخر.

فالله –عز وجل– يريد من هذه الأمة أن تكون شاهدةً على الناس، ومن مقتضى الشهادة على الناس أن تكون هي القائدة والرائدة لهم، والقيادة والريادة لا تتحقق إلا إذا كنت تستشعر من نفسك تمامًا أنك خير من هؤلاء الناس وأنك أعلى منهم بخيريّة الدين وعلو الدين، وهذه الخيرية وهذا العلو لا يتأتّى إلا إذا كنت متميّزًا عنهم في كل صغيرة وكبيرة في أمور الدين وفي أمور الدنيا، فالقيادة والريادة لا تتحقق وأنت تأخذ منهم، ولو أخذت منهم شيئًا قليلًا، فيحصل تميّع في نفس المؤمن، كيف يكون هو القائد والرائد والأستاذ لهذا العالم وهو يأخذ من الكفّار ما عندهم؟ وإن كان هذا المأخوذ هو أمرًا دنيويًا، لا تستقيم صورة التميز والمفاصلة في هذه الحالة.

كما قلنا الذي يأخذ من الكفار هديهم الظاهري ولو في مجرد الأمور الدنيوية؛ فهذا الأمر سيجعله في المستقبل لا يقف عند هذا الحد وإنّما يتعدّاه ليأخذ الأمور التي تتعلق بالفكر والمعتقد.

بل كما رأينا كيف أن أناسًا كثيرين بدأوا التشبه بالكافرين في الأمور الدنيوية، وانتهى بهم التشبه بالكفار إلى أنهم استوردوا منهم أحكام حياتهم كلها؛ في الدماء والأموال والأعراض، فصاروا كالغرب قلبًا وقالبًا، سواءً بسواء، لا يأنفون أن يحكموا بقانون نابليون أو بغيره من الشرائع التي جاءت من الغرب، بل يرون في ذلك قمّة في الرفعة وقمّة في التقدم.

فهذا التشبه الظاهري أورثهم –مع استمراره– تشبهًا باطنيًا أشدّ من التشبه الظاهري؛ فربما تجد أحدهم يلبس زيّ المسلمين صاحب عمامة وصاحب لحية إلا أنه في القلب يكاد لا يفترق عن أخيه النصراني أو أخيه اليهودي؛ عقيدةً وفكرًا فضلًا عن السلوك والتصرف.

ومن أخطر تلك الوثائق التي تحدثنا عنها من قبل والتي توضح لنا حرص الشريعة الإسلامية على قضية التميز والمفاصلة عن الكفار والمشركين ولو في أمور هي في نظرنا نحن بسيطة، تلك الوثيقة العمريّة والتي قرأناها عليكم، ورأينا كيف أن عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– استغرق سائر الصور التي من الممكن أن يحصل فيها المشابهة بين الكفار

وبين المسلمين، وهي صور ظاهرية ربما يجد فيها البعض قدرًا كبيرًا من البساطة، ولكن ميزان الشرع يختلف عن موازيننا نحن، فهي في الحقيقة غير بسيطة لأن استمرار التشبه في تلك الأمور البسيطة يؤدي إلى موارثة في الاعتقاد والمحبة والمودة، والتي إذا تحققت انخرمت عقيدة الولاء والبراء في قلب صاحبها.

وقد ذكر تلك الوثيقة شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (الصارم المسلول على شاتم الرسول) صـ ٢٠٨، وذكرها كذلك في (اقتضاء الصراط المستقيم) ، وأشار إليها كذلك في[٨] مجموع فتاواه ٢٨\٦٥٤، جاء[٤] في تلك الوثيقة على لسان[١] النصارى الذين اشترطوا تلك الشروط على أنفسهم:

"..وَأَلَّا نَضْرِبَ بِنَوَاقِيسِنَا إِلَّا ضَرْبًا خَفِيًّا فِي جَوْفِ كَنَائِسِنَا، وَلَا نُظْهِرَ عَلَيْهَا صَلِيبًا،وَلَا تُرْفَعَ أَصْوَاتُنَا فِي الصَّلَاةِ وَلَا الْقِرَاءَةِ فِي كَنَائِسِنَا فِيمَا يَحْضُرُهُ الْمُسْلِمُونَ، وَأَلَّا نُخْرِجَ صَلِيبًا وَلَا كِتَابًا فِي سُوقِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَلَّا نُخْرِجَ بَاعُوثًا –قَالَ: وَالْبَاعُوثُ يَجْتَمِعُونَ كَمَا يَخْرُجُ الْمُسْلِمُونَ يَوْمَ الْأَضْحَى وَالْفِطْرِ– وَلَا شَعَانِينَ، وَلَا نَرْفَعَ أَصْوَاتَنَا مَعَ مَوْتَانَا، وَلَا نُظْهِرَ النِّيرَانَ مَعَهُمْ فِي أَسْوَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَلَّا نُجَاوِرَهُمْ بِالْخَنَازِيرِ وَلَا بِبَيْعِ الْخُمُورِ، وَلَا نُظْهِرَ شِرْكًا، وَلَا نُرَغِّبَ فِي دِينِنَا وَلَا نَدْعُوَ إِلَيْهِ أَحَدًا، وَلَا نَتَّخِذَ شَيْئًا مِنَ الرَّقِيقِ الَّذِي جَرَتْ عَلَيْهِ سِهَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَأَلَّا نَمْنَعَ أَحَدًا مِنْ أَقْرِبَائِنَا أَرَادُوا الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنْ نَلْزَمَ زِيَّنَا حَيْثُمَا كُنَّا، وَأَلَّا نَتَشَبَّهَ بِالْمُسْلِمِينَ فِي لُبْسِ قَلَنْسُوَةٍ وَلَا عِمَامَةٍ وَلَا نَعْلَيْنِ وَلَا فَرْقِ شَعْرٍ وَلَا فِي مَرَاكِبِهِمْ، وَلَا نَتَكَلَّمَ بِكَلَامِهِمْ وَلَا نَكْتَنِيَ بِكُنَاهُمْ، وَأَنْ نَجُزَّ مَقَادِمَ رُءُوسِنَا، وَلَا نَفْرُقَ نَوَاصِيَنَا، وَنَشُدَّ الزَّنَانِيرَ عَلَى أَوْسَاطِنَا، وَلَا نَنْقُشَ خَوَاتِمَنَا بِالْعَرَبِيَّةِ، وَلَا نَرْكَبَ السُّرُوجَ، وَلَا نَتَّخِذَ شَيْئًا مِنَ السِّلَاحِ وَلَا نَحْمِلَهُ وَلَا نَتَقَلَّدَ السُّيُوفَ.... ضَمِنَّا لَكَ ذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِنَا وَذَرَارِيِّنَا وَأَزْوَاجِنَا وَمَسَاكِينِنَا، وَإِنْ نَحْنُ غَيَّرْنَا أَوْ خَالَفْنَا عَمَّا شَرَطْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَقَبِلْنَا الْأَمَانَ عَلَيْهِ فَلَا ذِمَّةَ لَنَا، وَقَدْ حَلَّ لَكَ مِنَّا مَا يَحِلُّ لِأَهْلِ الْمُعَانَدَةِ وَالشِّقَاقِ" اهـ. ٩

فتجد أن الوثيقة نصت على أمور بسيطة جدًا في نظرنا نحن، رغم ذلك تشدّد فيها عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– وصارت هذه الوثيقة متفقًا عليها بالإجماع –كما سيأتي معنا كلام ابن تيمية–. كل هذه الأمور البسيطة تبيّن لك اهتمام الشريعة بزرع روح التميّز والمفاصلة وتمييز المسلم عن غيره، خوفًا من أن تؤدي هذه المخالطة إلى نوع من

[١] انظر كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) لابن تيمية ١\٣٦٥

[١] انظر نص هذه العهدة العمريّة في السنن الكبرى للإمام البيهقي (١٨٧١٧).

الموالاة القلبية، وإقامةً لحاجز الولاء والبراء، فإذا سقط هذا الحاجز عن طريق المشابهة قد تورث هذه المشابهة الميل القلبي فتنمحي عقيدة المولاة والمعاداة في قلب المسلم.

ثم ختمت هذه المعاهدة بأن أقروا أنهم لو خالفوا أي شرط من هذه الشروط فينتهي عقد الذمة وحلّ للمسلمين دماؤهم وأموالهم وأعراضهم وانتقلوا في حكمهم من أحكام أهل الذمة إلى أحكام المحاربين.

وقال ابن تيمية في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم) عن هذه الشروط بعد أن ذكرها: "وهذه الشروط أشهر شيء في كتب الفقه والعلم، وهي مُجمع عليها في الجملة، بين العلماء من الأئمة المتبوعين، وأصحابهم، وسائر الأئمة، ولولا شهرتها عند الفقهاء لذكرنا ألفاظ كل طائفة فيها. وهي أصناف؛ الصنف الأول: ما مقصوده: التمييز عن المسلمين، في الشعور واللباس والأسماء والمراكب والكلام، ونحوها؛ ليتميز المسلم عن الكافر، ولا يتشبه أحدهما بالآخر في الظاهر، ولم يرضَ عمر –رضي الله عنه– والمسلمون بأصل التمييز، بل بالتميز في عامة الهدي، على تفاصيل معروفة في غير هذا الموضع. وذلك يقتضي: إجماع المسلمين على التميز عن الكفار ظاهرًا، وترك التشبه بهم.." اهـ. (..)[1]

وذكرنا لكم من قبل تلك القصة الطريفة والتي وإن كانت بسيطة في ظاهرها لكن مضمونها يحمل الشيء الكثير، ذكرها الدارقطني في سننه[1] وأبو يعلى في فوائده بإسْناد حسن؛ وهي أن عائذ بنْ عمر المدني ذلك الصحابي الجليل –رضي الله عنه– جاء يوم الفتح مع أبي سفيان، وأبو سفيان لم يكن قد أسلم وقتها، فقال الصحابة: (هَذَا أَبُو سُفْيَانَ وَعَائِذُ بْنُ عَمْرٍو)، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (هَذَا عَائِذُ بْنُ عَمْرٍو وَأَبُو سُفْيَانَ)[2].

فصحح لهم النبي —صلى الله عليه وسلم– الترتيب، وإن كان هذا الترتيب في الأسماء فقط ولا يقدم ولا يؤخر من الحقيقة شيء، ولكن الأمر تربيةً في نفوس الصحابة على روح الاستعلاء الإيماني، وإقامة لحاجز الموالاة والمعاداة، حتى يستشعر المسلم دائمًا أنه هو الأعلى وينظر للكافر على أنه أدنى منه مرتبة، وإن كان أدنى منه مرتبة فلا يستقيم أن يأخذ منهم شيئًا؛ لأنه هو صاحب المرتبة والريادة، وصاحب الأستاذية، ولأنه هو المبتعث الذي ابتعثه الله ليخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، فلا يستقيم من كان هذا حاله وهذه هي صفته أن يأخذ من غيره، ولو

---

[1] **كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم) لابن تيمية ١\٣٦٥.**

[1] **سنن الدارقطني (٣٦٢٠)**

[1] **السنن الكبرى للبيهقي (١٢١٥٥).**

كان هذا المأخوذ أمرًا دنيويًا في شعر أو في مأكل أو ملبس أو مشرب أو في غير ذلك من الأمور الدنيوية، أبدًا لا يستقيم أن يأخذ المسلم من غير المسلم في هذه الأمور الدنيويّة.

ثمّ برّر وعلّل النبي –صلى الله عليه وسلم– لماذا يجب أن يُقدَّم المسلم على الكافر ولو في الأسماء فقط فقال: (الْإِسْلَامُ أَعَزُّ مِنْ ذَلِكَ الْإِسْلَامُ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى).

وهذه الكلمة التي قالها الصحابة ليس فيها توهين لجانب الإسلام، وفي نظرنا ليس فيها شيء. ولكن التساهل في هذه الأمور البسيطة قد يورث نوعًا من المشابهة غير المحمودة في المستقبل، ومن ثمّ كان لا بد أن تركّز الشريعة على التمييز والتميز في كل صغيرة وكبيرة، وهذه الجملة (الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه) أخرجها الإمام البخاري في صحيحه[1].

فالإسلام لا يُعلى عليه حتى وإن كان هذا العلو هو علو لفظي لا يقدم ولا يؤخر من الحقيقة شيء، وهذا الكلام بالنسبة لواقعنا يعتبر ضربًا من الخيال، وكأننا نتكلم في أحلام أو منامات، فمجرد تقديم اسم الكافر على اسم المؤمن لم يرضَ به النبي –صلى الله عليه وسلم–، وكيف اليوم وقد علونا وقد ركبونا، بل قد وطئونا بأقدامهم ونعالهم؟!

وقريب من هذا ما أخرج ابن إسحاق في سيرته أنه عندما كانت الدائرة على المؤمنين في غزوة أحد علا بعض الكفار المسلمين في شعبة من الشعب فصاروا أعلى من المسلمين، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا)[1]، ولو كان هذا العلو علوّ المكان، فما بالك بعلو المرتبة وعلو القهر وعلو التمكين الذي لهم اليوم، وأن الدولة والشوكة لهم يعلون بها على المسلمين ويذيقونهم ألوان الخزي والنكاد؟!

وفي نفس الغزوة في غزوة أحد، كما جاء في حديث البراء بن عازب –رضي الله عنه– والذي أخرجه الإمام البخاري في عدة مواضع في صحيحه[1] وكذلك أخرجها الإمام أحمد في مسنده وكما في (فتح الباري) لابن حجر ٧\٣٤٩؛ أن أبا سفيان قال بعد أن انتهت واقعة أحد وبعد أن هزيمة المسلمين قال أبو سفيان: (أعلو هبل)، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم– للصحابة: (أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟)، قَالُوا: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقُولُ؟) قَالَ: (قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ)، ومن هنا

---

[1] **انظر صحيح البخاري كتاب الجنائز باب (بَابُ إِذَا أَسْلَمَ الصَّبِيُّ فَمَاتَ، هَلْ يُصَلَّى عَلَيْهِ، وَهَلْ يُعْرَضُ عَلَى الصَّبِيِّ الإِسْلاَمُ)**

[1] **سيرة ابن هشام ط دار السقا ٢\٨٦**

[1] **صحيحي البخاري(٣٠٣٩، ٤٠٤٣).**

يستمد المؤمن مصدر عزته وعلوه ورفعته، فهذا هو المبرر لكون المسلم هو الأعلى؛ أن الله –عز وجل– أعلى من سائر الآلهة والمعبودات الباطلة، فإلهنا الذي نعبده وحده لا شريك له هو الأعلى وهو الأجل وهو الذي له العلوّ بكافة أصنافه؛ علوّ القهر وعلوّ المنزلة وعلوّ الذات. أما سائر الآلهة الباطلة وإن كانت هي الأعلى في نظر أصحابها فهي على الحقيقة آلهة باطلة معدومة، كما قال تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ} . ٦ ٥ ١

فقال أبو سفيان: (إِنَّ لَنَا العُزَّى وَلاَ عُزَّى لَكُمْ)، فَقَالَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: (أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟)، قَالَ: (قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقُولُ؟) قَالَ: (قُولُوا اللَّهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ). وكذلك من هنا يستمد المؤمن مصدر عزته ورفعته أن الله تعالى هو مولاه ولا مولى للكافرين، ولا مولى للمشركين، ولا مولى للمرتدين، ومن كان الله مولاه فلا يحتاج لغيره بل الله حسبه والله كافيه.

والعجيب أن أصحاب الديانات الباطلة كاليهودية والنصرانية يحرصون كذلك على زرع روح التميز والمفاصلة في نفوس أتباعهم، فإذا كانوا هم بهذا الشكل فمن أولى بهذا نحن أم هم؟

وهناك قصة تبين لنا هذا المعنى؛ عندما كانت البعثات الطلّابيّة النصرانية تأتي وتفد لديار الإسلام والمسلمين لتلقي العلم؛ وخاصّة في الأندلس، حيث كان الطلاب الأوربيين يأتون للأندلس المسلمة، والتي كانت قبلة العلماء في سائر صنوف العلم الدينية والدنيوية، فكان الطلاب يأتون للأندلس ويأخذون منها العلوم الدنيوية كالطب والهندسة والفلك، إلى غير ذلك من العلوم.

فكانت الكنيسة النصرانية تراقب هذه البعوث الطلابية بمنتهى الشدة والحذر؛ خوفًا أن يتأثر هؤلاء الطلاب بالمسلمين فيدخلون في دينهم، ومن ثمّ عملت الكنيسة ورجال الدين النصراني على إقامة الحواجز بين هؤلاء الطلاب وبين المسلمين، فكانوا يأمروهم ويشدّدون الأوار عليه بضرورة أن يلتزموا في كل صغيرة وكبيرة بدينهم؛ في المأكل وفي المشرب وفي الملبس وفي الزي وفي الكلام.

---

[1] **سورة البقرة ١٦٦**

وأصدرت الكنيسة النصرانية قرارًا كنسيًّا؛ كما ورد في كتاب (النهي عن الاستعانة والاستنصار في أمور المسلمين بأهل الذمة والكفار) [1] في مقدمة الكتاب الصفْحة ٨، فجاء في نص هذا القرار:

"إن هؤلاء الشبان الرقعاء الذي يبدأون كلامهم بلغات بلادهم ثم يكملون كلامهم باللغة العربية لنعلم أنهم تعلموا في مدارس المسلمين، هؤلاء إن لم يكفوا على ذلك فستصدر الكنيسة قرارًا بالحرمان...."اهـ.

فهؤلاء الطلاب النصارى كانوا يذهبون لبلاد المسلمين ليتعلموا فيها، فمن الطبيعي أنهم كانوا يتعلمون اللغة العربية، فعندما كانوا يرجعون لبلادهم كان أحدهم يبدأ الكلام بلغته ثم يكمل باللغة العربية، كما يحدث الآن بعض الناس يتكلم باللغة العربية ثم يكمل كلامه باللغة الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية، فالأمر مشاهد حتى أنه يحدث بيننا الآن، فرغم أن هذا التصرف تصرف بسيط لم تقبل الكنيسة هذا التصرف، فالمسألة عندهم لا تحتمل، فالنصارى أصحاب العقيدة المنحرفة المتناقضة حرصوا على إقامة حاجز الموالاة والمعاداة من جانبهم هم، فيخافون أنه إذا انماع هذا الحاجز أن يدخل النصارى في دين الله، ومن ثمّ يقيمون تلك الحواجز بأي صورة من الصور.

أما عند اليهود فالأمر أوضح وأكثر وأشد، فاليهود في كل حركاتهم وسكناتهم يعلنون أنهم متميزون عن غيرهم في كل شيء، بل هم يقولون أصلًا أن غير اليهود هم في منزلة الكلاب والخنازير، ولم يُخلقوا في صورة إنسان إلا ليصلحوا لخدمة السيد اليهودي، وكلامهم في هذا الباب كلام كثير جدًا، التلمود مليء بهذه الروح العدائية لغير اليهود، وهم يهدفون من ذلك ليغرسوا في روح اليهودي أنه هو الأعلى وأنه هو السيد والحاكم، وأن الصورة الطبيعية التي لا يختلف فيه اثنان؛ هي أن يحكم اليهودي غيره، ومن ثمّ تجد أنهم يتصرفون في سائر مناحي الحياة بهذه الكيفية التي غرست في نفوسهم منذ الصغر؛ أنهم هم الأعلون وأنهم شعب الله المختار، فهو ينكر عليك عدم قبولك أن يكون اليهودي سيدًا لك، ويدّعي أن هذه سيادة طبيعية لا تحتمل النقاش، فهو خُلق من أجل هذا؛ من أجل أن يحكم ومن أجل أن تخدمه أنت، وكلامهم في هذا الباب كلام كثير وطويل.

[1] **الكتاب للشيخ مصطفى بن محمد الورداني ومن تقديم الدكتور طه جابر فياض العلواني، فالكلام للشيخ العلواني في تقديمه للكتاب.**

متابعة الحديث عن أهمية عقيدة الولاء والبراء:

يقول الشيخ حمد بن عتيق في كتابه (سبيل النجاة والفكاك من موالاة المرتدين وأهل الإشراك)، يقول –رحمه الله– في صـ ١٤: "فأما معاداة الكفار والمشركين فاعلم أنّ الله –سبحانه وتعالى– قد أوجب ذلك، وأكّد إيجابه وحرّم موالاتهم وشدّد فيها، حتى إنه ليس في كتاب الله تعالى حكمٌ فيه من الأدلة أكثر ولا أبيْن من هذا الحُكم بعد وجُوب التوحِيد، وتحرِيم ضُدّه"اهـ.

فالشيخ يقول أن القضية الرئيسية في كتاب الله عرضًا وتقريرًا وتفنيدًا وردًا على الشبهات الباطلة هي إقرار التوحيد والأمر والنهي عن الشرك والتحذير منه، ثم القضية التي تلي هذا مباشرة هي قضية الموالاة والمعاداة، فليس هناك من الأدلة الظاهرة البيّنة الواضحة في تقرير المسألة إثباتًا لها وردًا لضدها بعد التوحيد والنهي عن الشرك إلا قضية الموالاة والمعاداة، فتلك القضيّة أخذت مساحة كبيرة من حديث القرآن الكريم؛ حتى أنها حازت في المرتبة الثانية بعد إثبات التوحيد والأمر به، ونفي الشرك والنهي عنه.

ونحن قلنا من قبل أن اهتمام القرآن الكريم بهذه القضية يرجع إلى أنها هي الترجمة العملية الصادقة للتوحيد والإيمان، فالعقيدة التي لا تتحوّل إلى واقعٍ عمليٍ هي عقيدة ميّتة لا أثر لها في الوجود والحياة، وهذه العقيدة حتى تتحول في واقع عملي لا بد أن تظهر في قضية المولاة والمعاداة ومن ثمّ كانت هي الترجمة العملية الصادقة.

يقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن في مجموع رسائله المفيدة صـ ٦٠: "وما جاء في القرآن من النهي والتغليظ والتشديد في موالاتهم وتولّيهم، دليل على أنّ أصل الأصول، لا استقامة له ولا ثبات، إلا بمقاطعة أعداء الله، وحربهم وجهادهم، والبراءة منهم، والتقرب إلى الله بمقتهم وعيبهم"اهـ . ٨ ٥

وكذلك يقول كما في الدرر السنية: "لأنه لا يُتصور أنه يعرف التوحيد ويعمل به، ولا يعادي المشركين، ومن لم يعادهم، لا يُقال له عرف التوحيد وعمل به."اهـ. ٩ ٥ ١

١ (عيون الرسائل والأجوبة على المسائل)؛ للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن ١\٢٦٥.

١ (عيون الرسائل والأجوبة على المسائل)؛ للشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن ٢\٦١٠

لأن معاداة المشركين هي ركن من أركان التوحيد، فمن لم يأتِ بها لم يأتِ بركن التوحيد؛ لأنه لم يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله، وما أجمل تلك العبارة لأبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي والتي ذكرناها لكم من قبل، والتي ذكرها ابن مفلح في كتابه (الآداب الشرعية) ١\٢٦٨، وكذلك ذُكرت في (الدرر السنية) جزء الجهاد صـ ١٣٨، واستمع لتلك الجملة الجميلة.

يقول أبو الوفاء: "إِذَا أَرَدْت أَنْ تَعْلَمَ مَحَلَّ الْإِسْلَامِ مِنْ أَهْلِ الزَّمَانِ فَلَا تَنْظُرْ إلَى زِحَامِهِمْ فِي أَبْوَابِ الْجَوَامِعِ، وَلَا ضَجِيجِهِمْ فِي الْمَوْقِفِ بِلَبَّيْكَ، وَإِنَّمَا أُنْظُرْ إلَى مُوَاطَأَتِهِمْ أَعْدَاءَ الشَّرِيعَةِ " اهـ. "فاللجا اللجا إلى خصن الدين! [٦] والاعتصام بحبل الله المتين! والانحياز إلى أوليائه المؤمنين! والحذر الحذر من أعدائه المخالفين! فأفضل القرب إلى الله تعالى: مقت من حاد الله ورسوله، وجهاده باليد واللسان والجَنان بقدر الإمكان"اهـ .[١]

والذي يهمنا من هذه المقولة الجميلة أن المعيار والمقياس لمعرفة موقف الناس من دين الله ومكانة الإسلام في قلوبهم ليس في النظر للمساجد وإن ازدحم بالمصلين، وليس بالنظر للمسجد الحرام وإن ازدحم بالمعتمرين والحجاج والطواف والمصلين، وإنما المعيار والمقياس الحقيقي هو بالنظر من موقف هؤلاء الناس من عقيدة الموالاة والمعاداة، ومن موقف هؤلاء الناس من أعداء الدين، ومن موقف هؤلاء الناس الكفار والمرتدين، ومن النظر لمواطأتهم لأعداء الدين.
وهذا الكلام قرّره لنا النبي –صلى الله عليه وسلم– قبل ابن عقيل في الحديث الصحيح المشهور، فقال –صلى الله عليه وسلم–: (يوشِكُ الأُممُ أن تَداعَى عليكم كما تَداعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها)، قالوا: (ومن قلَّةٍ نحن يومئذٍ؟) قال: (بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكم غُثاءٌ كغثاء السَّيلِ، ولَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِن صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم، وليقذفنَّ اللهُ في قلوبِكم الوَهْنَ). فقال قائلٌ: (يا رسُولَ الله، وما الوهنُ؟) قال:(حبُّ الدُنيا وكراهيةُ الموتِ)[٣] [٦]، وعند الإمام أحمد: (حبّكم الدنيا وكراهيتكم القتال)[١] .

فهذا الحديث ككلام الإمام أبي الوفاء ابن عقيل تمامًا، بل حديث النبي –عليه الصلاة والسلام– أجمع منه، وفيه بيان للعلة والمرض الذي أُتي منه المسلمون، وهو الوهن وكراهية الموت والقتال.

---

١ انظر كتاب (الآداب الشرعية والمنح المرعية) لمحمد بن مفلح المقدسي صـ ٢٣٧

١ انظر (الدرر السنية في الأجوبة النجدية) الطبعة السادسة ٨\٣٠٠.

١ سنن أبي داوود (٤٢٩٧)

١ مسند الإمام أحمد (٨٦٩٨)

فالنظر ليس للجموع الغفيرة في المساجد، وليس بالنظر للجموع الغفيرة في منى وفي عرفات والحرم المكي والحرم المدني، وإنّما النظر لتلك العقيدة العملية التي تخرج من قلب المؤمن فتترجم على جوارحه فعلًا ونصرةً وتمكينًا لدين الله.

يقول ابن القيم –رحمه الله–: "القسم الرابع: من مخالطته الهلك كله ومخالطته بمنزلة أكل السم فإن اتفق لأكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس –لا كثّرهم الله– وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة رسول الله الداعون إلى خلافها {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا} فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا، إن جردت التوحيد بينهم قالوا: تنقّصت جناب الأولياء والصالحين، وإن جرّدت المتابعة لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين، وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير قالوا: أنت من المشبهين. وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر قالوا: أنت من المفتنين، وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين، وإن انقطعت إلى الله تعالى وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا: أنت من المبلسين، وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم فأنت عند الله تعالى من الخاسرين وعندهم من المنافقين.

فالحزم كل الحزم التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم وأن لا تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم ولا تبالي بذمهم ولا بغضبهم فإنه عينُ كَمَالك، كما قيل:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص * فهي الشهادة لي بأني فاضل" اهـ.** ٤

فمن التمس رضا الناس بسخط الله؛ سَخِط الله عليه وأسخط عليه الناس؛ عقوبة قدرية، فالله –عز وجل– يأبى إلا أن يذلّ من عصاه على أيدي من أطاعوهم وعصوا الله بطاعتهم، فيذلهم الله عز وجل على أيديهم عقوبةَ شرعية وقدرية. (.....).

---

[١] **بدائع الفوائد لابن القيم ٢\٢٧٥.**

المقدمة الرابعة: الجاهلية تدرك تمامًا خطر عقيدة الولاء البراء على كيانها ووجودها:

(...) وهذه المسألة –أي أن الموالاة والمعاداة هي الترجمة العملية للتوحيد– فهمتها الجاهلية، وهذه مسألة مهمة، وفهمك لهذه المسألة يجعلك تُقيّم كثيرًا من تصرفات الناس اليوم، ويجعلك تفهم كثيرًا مما يدور اليوم، والتي يحتار العقل فيها، في أن بعض الناس يريد أن يجمع بين النقيضين بل بين عدة متناقضات.

نقول هذه المسألة؛ أن الموالاة والموالاة والمنابذة لأعداء الله هي الترجمة العملية للإيمان وأنها هي المعيار الحقيقي للتمسك بهذا الدين، فقهتها الجاهلية فقهًا ربما يفوق كثيرًا من المنتسبين للإسلام، ليس من العوام وإنما أعني الخواص.

فالجاهلية تدرك تمامًا وتعرف أن الخطر الحقيقي المتمثل على كيانها القائم على الباطل لا يتبلور في تلك الكلمات المنمقة، ولا في تلك المحاضرات الرنانة، ولا في تلك الجموع الغفيرة التي تجتمع ثم تنصرف وكأنّ شيئًا لم يكن، تعلم أن كل هذا لا يمثل أي ضرر ولا أي خطر يهدد كيانها ومصالحها، ولذلك هي تساعد هذه الأمور وتنميها وتزكيها بل وتعمل على انتشارها. وإنما الذي يهدد كيانها هو تلك الترجمة العملية للإيمان والتوحيد؛ أن تتحول تلك العقيدة الكامنة في صدر ونفس المؤمن إلى واقع عملي يحياه بين الناس، فهذا هو الأمر الذي يُهدّد الجاهلية، وهذا هو الأمر الذي لا تقبل الجاهلية المساومة عليه.

فالإسلام المُبَعَّض لا يخيفها، وهي بالمقابل لا تردّه بل ترضاه، بل تنفق في سبيله، بل تساعد على انتشاره، بل تفتح المجال أمام الدعاة وأما الخطباء وأمام فلان وأمام علان لينشروا دعوتهم، ولكنها في الحقيقة دعوة مبتورة، دعوة بينها وبين دعوة الأنبياء بون شاسع، دعوة يرضاها كسرى وقيصر.

فإذا بدأت تلك الدعوة تدخل الحيز الذي يمثل خطرًا على الجاهلية هنا لابد من إيقاف هذه الدعوة؛ لأنها تريد أن تعبِّد الناس حقًا وصدقًا لله بالمفهوم الحقيقي الشامل للعبودية، فهنا المسألة لا تحتمل.

نقول للأسف فإن الجاهلية تفهم هذه الحقيقة في حين أن كثيرًا من المسلمين بل من الملتزمين بل ممن حملوا السلاح لا يفهمون هذه الحقيقة حتى الآن، رغم أنها واضحة أشد الوضوح في كتاب الله وفي سنة نبيه –صلى الله عليه وسلم– وفي كلام الأئمة الثقات الذين ندّعي نحن الانتساب إليهم.

نقول: لو استعرضنا الجاهلية القديمة أو الحديثة نرى أنها ترضى بجزء كبير من الدين؛ لأنها ترى أن هذا الجزء لا يمثل أي تهديد لمصالحها ولحصونها ولقلاعها القائمة بالباطل، بل هذا الجزء المنتشر يخدم مصالحها وقلاعها وحصونها أيّما خدمة؛ لأنه يصبغ عليها الشرعية، تلك الشرعية التي تلبّس وتدلّس وتدجّل بها على الناس أنها دول شرعية وأنها كيانات إسلامية تستحق السمع والطاعة، وبهذا التدليس يضيع الحق بين الناس.

ولذلك كانت دعوة أبينا إبراهيم كما كانت دعوة محمد –عليهما الصلاة والسلام– كانت دعوتهما الصدع بالحق، ملة إبراهيم؛ الموالاة والمعاداة من أول يوم وفي زمن الاستضعاف، –كما سيأتي معنا كلام أئمتنا–. السبب لمنع هذا اللبس والتدليس الذي في ثناياه يضيع الحق وتختفي معالمه كما نرى اليوم بصورة واضحة، فينقلب الكفر إلى إيمان والإيمان إلى كفر، والسنة إلى بدعة والبدعة إلى سنة، ويصبح الدين دينًا مهجورًا لا يعرفه أحد.

على سبيل المثال، لو نظرت لأوروبا أو لأمريكا –رأس الكفر المعاصر– تجد أن المراكز الإسلامية تنتشر في كل ولاية، وهذا يعرفه من عاش هناك، فالمراكز الإسلامية كثيرة جدًا، سواء في أوربا أو في أمريكا، والدعاة كثيرون جدًا، بل يصلون إلى الآلاف، كل هذا بدون نكير وبدون تنغيص من الحكومات على هؤلاء الدعاة وعلى تلك المراكز الإسلاميّة التي تنتشر في أوربا وأمريكا في عرضها وطوله.

إلا أنك لو نظرت نظرًا متفحصًا لماهيّة ومضمون تلك الدعوات التي تُردّد في الغرب، تجد أنها ليس لها من الإسلام إلّا الاسم، وليس لها من القرآن إلّا الرسم، وليس لها من الشريعة إلا قشورًا خارجية فقط هو الذي تسمح به الجاهلية، أمّا أن تتكلم عن باطلهم وعن كفرهم وتصرّح بعيب آلهتهم، فهذا الذي لا تقبله الجاهلية بحال من الأحوال.

فلسان حال الجاهلية يقول: ادرس وتعلم وافعل كل ما تريد أن تفعله إلا المنطقة الممنوعة، إلا أن تمارس عقيدة الولاء والبراء، كل شيء مباح لك إلا هذه المسائل، المساجد منتشرة في بلادنا وفي بلاد الكفر الأصلي، والدعاة كثيرون بالآلاف، إلا أن حقيقة الدين غائبة عن أعين الناس وعن عقولهم، فيستوي عندهم التحاكم لشريعة الرحمن مع التحاكم لشريعة الشيطان، بل منهم من لا يفرق بين شريعة الرحمن وشريعة الشيطان، ومن يرى أن الأفضل له أن يتحاكم لشريعة الشيطان!.

والتتار الذين داهموا بلاد المسلمين، والذين لا يختلف في كفرهم اثنان، -كما ذكرنا عند حديثنا في موضوع الحاكمية- ، ونقلنا فتوى ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} ، رغم ذلك رأينا أن التتار ما منعوا المسلمين -ولو يومًا واحدًا- من أن يمارسوا شعائر الإسلام، بل لم يمنعوا الدعاة -ولو يومًا واحدًا- عن أن يدعوا للإسلام، بل أعجب من ذلك أنهم لم يمنعوا المسلمين أن يتحاكموا لشريعة ربهم.

وهذا أمر تتفوق فيه الأنظمة الحاكمة المعاصرة في ردتها على كفر التتار، ونحن فصلنا معكم هذه المسألة ونقلنا الشهادات التاريخية الموثوقة التي تؤكّد أن التتار لم يكونوا يمنعون المسلمين عن التحاكم لشريعة ربهم، وأن المحاكم الإسلامية كانت منتشرة في طول البلاد الإسلاميّة وعرضها في زمن التتار وتحت ظل حكمهم، وأن القضاة المسلمين من المذاهب الأربعة كانوا يمارسون حكمهم بشريعة الله، كل هذا في ظل دولة التتار، والتي لا يختلف اثنان في كفرها.

ونقلنا فتاوى أئمة العلم وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية في تكفير التتار وفي وجوب قتالهم وأنه فرضٌ عينيّ على جميع المسلمين، رغم أنهم كانوا يسمحون بالدعوة ويسمحون بالدين ويسمحون بالشعائر الإسلامية، بل فوق ذلك كانوا يسمحون بتطبيق الشريعة الإسلامية على الناس وليس على الحكام، ولم يجبروا واحدًا من المسلمين يومًا واحدًا على الخضوع لأحكام ياسقهم الملعون، ورغم ذلك أفتى أئمتنا بوجوب قتالهم؛ لأن تلك العقيدة -عقيدة الولاء البراء- هي عقيدة عملية لا بد أن تظهر في القلب أولًا ثم على الجوارح ثانيًا. وأن كون الدول الكافرة -أصلية كانت أو مرتدة- تستتر بشيء من الإسلام فإنما هو تدجيل وتلبيس على الناس، كما أنه تبعيض للعبودية ولو كان في مسألة واحدة كما قال تعالى: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} ، وهذه المسألة محسومة في ديننا وتلك الصورة غير مقبولة مهما كانت تلك الصورة التي تتغطى بها.

وكذلك كان الأمر في ظل الدولة العبيدية المرتدة المعروف أمرها، والفتاوى الكثيرة فيها وفي ملوكها وفي زندقة القائمين عليها، ورغم ذلك كانت تلك الدولة المشهور بالزندقة والردة تسمح بشعائر الإسلام، وتسمح بالدعوة والدعاة، بل لم

---

[١] سورة المائدة الآية ٥٠.

[١] راجع دورة الحاكمية للشيخ أبي عبد الله المهاجر -سيُنشر تفريغها قريبًا-.

[١] سورة البقرة الآية ٨٥

تشرع بغير ما أنزل الله، ولم تجبر الناس على الخضوع لأحكام تخالف الشريعة الإسلامية، فكانت الشريعة الإسلامية معمولًا بها، ولو ظاهريًا بين النال، ورغم ذلك كانت الفتوى بكفرهم وردتهم وزندقتهم وبوجوب قتالهم.

وفي إسرائيل دولة اليهود أحفاد القردة والخنازير، المساجد مفتوحة حتى في تل أبيب، وجماعات الدعوة والتبليغ تذهب لمساجد تل أبيب ليمارسوا الدعوة هناك، بدون نكير من الحكومة اليهودية؛ لأنه دين ترضاه الجاهلية أصلية كانت أم مرتدة، ودين لا يمثل أي ضرر ولا أي خطر على مصالحها وكياناتها، بل هو –على التحقيق– يخدم مصالحها؛ لأنه يظهر الدولة كدولة شرعية، وأنها ترحب بالدين، وتحمي حمى الإسلام، وأنها دولة العقيدة وأنها كذا وكذا.

وكذلك أمريكا، وكما ذكرنا فيها من المراكز والمؤتمرات الإسلامية الشيء الكثير، ويعيش فيها آلاف من الدعاة، ويوم أن ذهب شيخ ضرير وجلس فيها سنة أو سنتين انقلبت الدنيا على رأسه.

فقارن بين هؤلاء الذين جلسوا في أمريكا عشرات السنوات يمارسون الدعوة إلى الله ويدعون لدين الله على زعمهم، وبين على الشيخ المسن الضرير المليء بالأمراض المزمنة، لم تتحمل أمريكا وجود هذا الشيخ الدكتور عمر عبد الرحمن فكّ الله أسره، ولم تتحمل أمريكا أن تسمع منه بضع كلمات وخطب ومحاضرات، رغم أنها في نفس الوقت تتحمل عشرات الآلاف من الدعاة الذين يذهبون ويرجعون أو يقيمون في أمريكا، لماذا؟ فهذه علامة استفهام كبيرة جدًا تطرح نفسها، والعاقل من يتوقف عند علامة الاستفهام هذه، ومن رضي لنفسه مرتبة الأنعام فهو وشأنه.

فقارن بين تلك الدعوة وتلك الدعوة، فالشعار المرفوع من الفريقين واحد ولكن المضمون هو المختلف، والإسلام يتعامل مع المضامين ولا يتعامل مع المظاهر، فالإسلام دين جوهر قبل أن يكون دين مظهر، فهو جاء بإصلاح الظاهر والباطن، أمّا تلك الرسوم الممسوخة وتلك الشعارات التي ليس لها من الحقيقة شيء هي ليست من الإسلام في شيء.

وهذا الأمر أوضحه لنا الحبيب المصطفى –صلى الله عليه وسلم– أيّما وضوح، وانظر إلى دعوته في الفترة المكية والتي يحتج بها من لم يفقه معنى (لا إله إلا الله) وهي حجة عليه، –كما سنفصل في دروس السيرة–؛ في الفترة المكية في زمن الاستضعاف يوم كان يذوق المسلمون العذاب والنكال في دينهم، ورغم ذلك انظر إلى دعوته وماهيتها ومضمونها، وانظر لمحلها في عقيدة الموالاة المعاداة، تجد أنها ترجمة صادقة لعقيدة الموالاة والمعاداة.

فالنبي -صلى الله عليه وسلم- منذ الأيام الأولى لبعثته وهو يُصرّح لأهل الجاهلية بكفرهم وبشركهم وبعيب آلهتهم وبتسفيه أحلامهم وبأنهم على الباطل الصُرَاح، والمُتأمّل للقرآن المكّي يجد تلك الآيات التي يُصرّح فيها المولى -سبحانه وتعالى- بتكفير المشركين، وهم عند أنفسهم ليسوا بكفار -مثل المشركين اليوم-، فهم عند أنفسهم على الخير والهدى وعلى دين إبراهيم وسدنة الكعبة بل من طلاب العقيدة في زمنهم، ورغم ذلك كان القرآن المكي الذي يُتلى منذ أول يوم في مكة يصرّح بتكفيرهم وبعيبهم وبتسفيه أحلامهم وبأنهم على الباطل وبأنهم مشركون وبأنهم كافرون، بل ويعيب طغاتهم الكبار كالوليد بن المغيرة وأبي جهل وأبي لهب.

ولو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يأخذ بفقه المصالح والمفاسد، ذلك الفقه الأعوج الذي ينتشر بين المسلمين اليوم إلا من رحم ربي، لقال: لماذا أقابلهم بالعداوة؟ ولماذا أقابلهم بالنكير؟ ولماذا أسفِّه أحلامهم؟ ولماذا أعيب شرائعهم وباطلهم وقوانينهم؟ نحن في الفترة المكية وفي زمن الاستضعاف فلنمر هذه المرحلة بسلام.

وهؤلاء ليست القضية عندهم مَرْحَلِيّة بل هذا هو دينهم الذي يعتقدونه، قضية الموازنات الفاسدة أو التنازلات التي ليس لها نهاية.

فلم يفعل النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك، بل صرّح من أول يوم بالحق وبأن هؤلاء القوم ليسوا على شيء، وانظر إلى هذا وإلى محل المسلمين اليوم من هذه العقيدة، وانظر للمدح للطغاة والمتجبرين والظلمة، ولمدح أفعالهم وأقوالهم وتشريعاتهم، بل والمشاركة لهم في مجالسهم وأعيادهم وانتخاباتهم وبرلماناتهم، وإلى سائر هذه القائمة السوداء، وقارن بين هذا الحال وبين حال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الفترة المكيّة.

فالنبي —عليه الصلاة والسلام- لم يسكت من بداية الدعوة عن تسفيه أحلام المشركين وعن التعرض لآلهة الكفار وعيبها، ولو أنه —حاشاه من ذلك- كتم الآيات التي فيها تسفيه لآلهتهم اللات والعزة ومناة -والمعبودات هي هي ولكن الأسماء تختلف، هذه معبودات حجرية وهذه معبودات بشريّة- ولم يصرح بتلك الآيات التي تتعرض للوليد بن المغيرة ولأبي جهل ولأبي لهب، وكذلك الآيات التي تصرح بالبراءة من المشركين وبنبذهم وعيبهم، وما أكثرها في كتاب الله وخاصّة في الفترة المكيّة، لو فعل ذلك لما تعرّضوا له ولما آذوه ولما وضعوا على ظهره سلا الجزور ولما هددوه بالقتل والفتك ولما عذّبوا أصحابه، ولكنّها سنّة ودعوة، فمن أراد أن يأخذها بحقها فليأخذها، أمّا من أراد أن يمسخها ويجعلها دينًا ممسوخًا فهو من المطففين عند الله -عز وجل-.

قال تعالى: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ}[1] ، وقال تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ}[1] وقال تعالى: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[1] ، فهذا هو الدين لمن أراد أن يأخذه، ومن لم يرد فليبحث له عن أي دين أراد، المسألة لا تحتمل غير هذا.

بل لكان له سعة وهو أصحابه أن يجلس في مكة بين ظهراني قومه وعشيرته وفي بلده التي وُلد فيها ونشأ وترعرع، ولكان له سعة في ترك الهجرة والتعب والنصب، كل هذه الأمور كانت تسعه لو أن الدين يتحمل هذه المسألة؛ يتحمل المداهنة والمداراة وعدم التصريح لهم بالمعاداة وبتسفيه آلهتهم وشرائعهم وقوانينهم الباطلة، لو أن هذا الأمر يسعه فلماذا يهاجر ويسبب لأصحابه ولنفسه التعب والنصب وهذه الأمور التي تعرفونها أكثر مني؟ ولكن هو الدين، كما قال الإمام أحمد –الصّديق الثاني–، فمن أراد أن يأخذه بحقه فليأخذه أمّا من أراد أن يحرّفه ويبعّضه وأن يدلس على الناس فليتخذ له دينًا آخرًا.

واستمع لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وهو يُجلّي لنا هذه الحقيقة، والتي هي في الأصل من أولويات الإسلام ومن بدائيات الدعوة ومن أول الأمور التي يجب أن يفهمها الداعية، يقول الشيخ في رسالته المطبوعة في الجامع الفريد (شرح ستة مواضع من السيرة النبوية الشريفة)، وهي رسالة علّق فيها الشيخ على ستة مواضع من السيرة النبوية، يقول الشيخ:

"الموضع الثاني: أنه –صلى الله عليه وسلم– لما قام ينذرهم عن الشرك، ويأمرهم بضده وهو التوحيد، لم يكرهوا ذلك واستحسنوه، وحدثوا أنفسهم بالدخول فيه، إلى أن صرح بسب دينهم وتجهيل علمائهم، فحينئذ شمروا له ولأصحابه عن ساق العداوة وقالوا: سفّه أحلامنا وعاب ديننا وشتم آلهتنا." اهـ. (..).[1]

فالشيخ يقول أنه في بداية دعوة النبي –صلى الله عليه وسلم– قالت قريش هذا كلام حسن، وهم –أي مشركو العرب– كانوا في الأصل موحدين حتى طرأ عليهم الشرك، فلمّا تعرّض النبي –صلى الله عليه وسلم– لباطلهم، وحقّق

---

[1] سورة مريم الآية ١٢

[1] سورة الحجر الآية ٩٤

[1] سورة الكهف الآية ٣٠.

[1] رسالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله– مطبوعة ضمن مجموع مؤلفات الشيخ الصادر من جامعة الإمام محمد بن سعود.

عقيدة الولاء والبراء ونبذهم وسفّه أحلامهم قلبوا له ظهر المجنّ، في البداية لم يتعرضوا له بل حدّثوا أنفسهم في الدخول في دينه والدخول في دعوته. (..).

فالجاهلية ترضى منك بالدين ولكن بشرط أن لا تتعرض لما هي عليه، بل تعينك وتنفق عليك الأموال وتعطيك الألقاب والمناصب والأموال والمراكب إلّا إذا تعرّضت لما هي عليه وصرّحت بتكفيرهم وعبت قوانينهم وشرائعهم الباطلة التي ما أنزل الله بها من سلطان، كل هذه الأمور لا يقبلوها منك أبدًا.

ثم يقول الشيخ معلقًا على كلامه السابق: "فإذا عرفت هذا، عرفت أن الإنسان لا يستقيم له إسلام –ولو وحَّد الله وترك الشرك– إلا بعداوة المشركين، والتصريح لهم بالعداوة والبغض كما قال تعالى: {لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} الآية. فإذا فهمت هذا فهمًا جيدًا عرفت أن كثيرًا من الذين يدّعون الدّين لا يعرفونها، وإلا فما الذي حمل المسلمين على الصبر على ذلك العذاب والأسر والضرب والهجرة إلى الحبشة، مع أنه –صلى الله عليه وسلم– أرحم الناس لو يجد لهم رخصة لأرخص لهم." اهـ. (..). [2] [7]

وقارن بين هذا الكلام وبين ما تسمع اليوم من فقه ومن مصلحة وسياسة.

ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مقام آخر في كتابه (مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم):

"فلما أنذر –صلى الله عليه وسلم– الناس، استجاب له القليل. وأما الأكثر: فلم يتبعوا ولم ينكروا، حتى بادأهم بالتنفير عن دينهم وبيان نقائصه وعيب آلهتهم. فاشتدت عداوتهم له ولمن تبعه. وعذبوهم عذابًا شديدًا، وأرادوا أن يفتنوهم عن دينهم. فمن فهم هذا عرف أن الإسلام لا يستقيم إلا بالعداوة لمن تركه وعَيْب دينه، وإلا لو كان لأولئك المعذَّبين رخصة لفعلوا. وجرى بينه وبينهم ما يطول وصفه. وقص الله سبحانه بعضه في كتابه." اهـ. (.......). [3]

فلو كان هناك رخصة لأولئك الصحابة الذين عُذّبوا ونُكّل بهم وهُجّروا من أوطانهم وديارهم لأخذوا بها، ومن يقول هذا فكأنّه يستدرك على النبي –صلى الله عليه وسلم– وكأنّه يستدرك على الصحابة، وكأنّه يخطّئ النبي –صلى الله

---

[1] رسالة الشيخ محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله– مطبوعة ضمن مجموع مؤلفات الشيخ الصادر من جامعة الإمام محمد بن سعود.

[1] كتاب (مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم) للشيخ محمد بن عبد الوهاب صـ ٣٤.

عليه وسلم– وأصحابهم أنهم لم يأخذوا بهذا الفقه الجديد الذي تفتّقت أذهانهم عنه، وكأنّه يستدرك على المعصوم –صلى الله عليه وسلم–.

وعند ابن إسحاق في سيرته أنّ قريشًا اجتمعت وذهبت إلى أبي طالب عم النبي –صلى الله عليه وسلم– فقالوا له: "يَا أَبَا طَالِبٍ، إنَّ ابْنَ أَخِيكَ قَدْ سَبَّ آلِهَتَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَسَفَّهُ أَحْلَامَنَا، وَضَلَّلَ آبَاءَنَا.." اهـ. [٤]؛ فهذا الأمر هو الذي جعلهم يحاربونه وأصحابه هذه الحرب الضروس.

وكذلك عند ابن إسحاق قصّة أخرى بإسناد حسن، ورواها كذلك الهيثمي في (مجمع الزائد) وقال: "رواه أبو يعلى، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح"، والحديث حسن حسنه الألباني في تعليقه على (فقه السيرة) للغزالي.

والقصة أن وفد قريش ذهبوا لأبي طالب يطلبون منه أن يكف محمد – صلى الله عليه وسلم– عن عيبهم وعن تسفيه أحلامهم وعن نبذ آلهتهم ومعبوداتهم، فقال أبو طالب: (يَا ابْنَ أَخِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنْ كُنْتَ لِي لَمُطَاعًا، وَقَدْ جَاءَ قَوْمُكَ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ تَأْتِيهِمْ فِي كَعْبَتِهِمْ، وَفِي نَادِيهِمْ تُسْمِعُهُمْ مَا يُؤْذِيهِمْ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَكُفَّ عَنْهُمْ). فَحَلَّقَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: (وَاللَّهِ مَا أَنَا بِأَقْدَرَ أَنْ أَدَعَ مَا بُعِثْتُ بِهِ مِنْ أَنْ يُشْعِلَ أَحَدُكُمْ مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ شُعْلَةً مِنْ نَارٍ). فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: (وَاللَّهِ مَا كَذَبَ ابْنُ أَخِي قَطُّ، ارْجِعُوا رَاشِدِينَ). [٥] [٧]

والشاهد من هذا الموقف أمران؛ الأمر الأول أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يُصرّح بعيب آلهتهم وتسفيه أحلاهم كما أسلفنا، والأمر الثاني ردّ النبي –عليه الصلاة والسلام عليهم– فلم يقل بفقه المصالح المفاسد! ولم يداري ولم يداهن حفظًا على الدعوة، ولم يقل أن عندنا هامشًا واسعًا نستطيع أن نعمل فيه فلا نتعرض لهم، رغم أنهم –كما سيأتي معنا– عرضوا عليه المال والملك والنساء وغير هذه الأمور، ولم يقل لهم أيضًا نعقد حلف مشترك أو برلمان مشترك. الدين حق واضح لا يقبل التميع، والمسألة فطرية لا تحتاج لأدلة ولا لتقرير، والذي يقرأ القرآن مجرد قراءة يفهم الحقيقة، ولكن ران على قلوبهم وعلى عقولهم للأسف، ونتج عن هذا ضلال وبُعد عن المنهج الحق، وتبعيض وعرض

---

[١] سيرة ابن إسحاق صـ ١٤٨.

[١] سيرة ابن إسحاق صـ ١٥٥، (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) للهيثمي حديث رقم (٩٨٠٩).

في منتهى الخلل لحقائق الإسلام، الإسلام يعرض اليوم عرضًا في قمة الانحراف ممّن يُنْتظر منهم أن يطبقوا الإسلام، وهذه طامة كبرى!.

وهذه القصة لها رواية أخرى ضعيفة وهي التي فيها: (يا عم لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه) [١]، فهذه رواية ضعيف يُتسّامح فيها في باب السير، إلاّ أن الرواية التي ذكرناها أولًا هي روية صحيحة بل لها عدة طرق وحسّنها الألباني كما قلنا في تعليقه على (فقه السيرة) للغزالي. (....).

كذلك يوم أن اجتمع له زعماء قريش وعرضوا عليه المال، والحديث حسن حسّنه الألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي، فقالوا:

(إنْ كُنْتَ إنَّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالًا جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ شَرَفًا سَوَّدْنَاكَ عَلَيْنَا، حَتَّى لَا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنَا) [٧]، هذا العرض الذي لو عُرض اليوم على بعض هؤلاء لفرحوا جدًا ورأوا أنه قمة النصر؛ أن يصير أحدهم الملك أو رئيس الجمهورية، فيرى أن هذا قمة النصر ولا يعرف أنه هذا قمة الهزيمة، كما سيأتي معنا كلام سيد –رحمه الله–.

وانظر لهؤلاء الذين يتسابقون على الكراسي والبرلمانات وانظر إلى غلام الأخدود، بل انظر إلى سيد المرسلين –صلى الله عليه وسلم– في هذا الموقف، في رده على هذا العرض؛ فقال لهم الرسول —صلى الله عليه وسلم–: (هل انتهيتم؟) قالوا: نعم. ثم بدأ يتلو على مسامعهم مفاتح (فصّلت)، ثم قال في نفس المقام لهؤلاء الذين يعرضون عليه المال والمنصب والجاه: {وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} [١]، فصرّح بكفرهم وبشركهم وبعيبهم وأنهم على الباطل الصراح، فهي عقيدة لا تقبل التميّع ولا تقبل المداهنة والخلط واللبس.

يقول الشيخ حمد بن عتيق كما في (الدرر السنية) في جزء الجهاد:

---

[١] سيرة ابن إسحاق ١٥٤.

[١] انظر سيرة ابن هشام ط السقا ١\٢٩٣

[١] سورة فصلت الآيات ٦–٧.

"فليتأمل العاقل، وليبحث الناصح لنفسه عن السبب الحامل لقريش على إخراج رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه من مكة، وهي أشرف البقاع؛ فإن من المعلوم أنهم ما أخرجوهم إلا بعد ما صرّحوا لهم بعيْب دينهم، وضلال آبائهم، فأرادوا منه –صلى الله عليه وسلم– الكفَّ عن ذلك، وتوعّدوه وأصحابه بالإخراج. وشكا إليه أصحابه شدّة أذى المشركين لهم، فأمرهم بالصبر والتأسي بمن كان قبلهم ممن أوذي، ولم يقل لهم: اتركوا عيب دين المشركين، وتسفيه أحلامهم. فاختار الخروج بأصحابه، ومفارقة الأوطان، مع أنها أشرف بقعة على وجه الأرض. {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} " اهـ. (.......). ٩ ٠ ٧ ٨

ويقول كذلك الشيخ حمد بن عتيق في رسالته (الدفاع عن أهل السُنّة والاتِّبَاع) كما في (مجموع رسائل حمد بن عتيق)، يعقد مقارنة بين الذي رأى أن الدين كل الدين في المدارة والمداهنة والسكوت عن الباطل وبين الذي صرح للجاهليّة بكفرها وشركها وردّتها، والشيخ يرد على عالم من علماء عصره، فعندما دخلت الدولة التركية ظلّ هذا العالم وأمثاله كثيرون في ظل الحكومة التركية ولم يخرجوا منها ولم يصرّحوا لهم بالعداوة والتكفير والكفر والردّة، وكتب رسالة أرسلها للشيخ حمد بن عتيق يدافع فيها عن مذهبه ويعلن أنه موحّد ومؤمن ومتمسك بدينه، فرد عليه الشيخ بهذه الرسالة المطبوعة والمنتشرة بين أيدي المسلمين. يقول الشيخ:

"أما من كان دينه بهواه، وانقياده لأهل الكفر ولأهل الإسلام سواء، وإعانة الطائفتين سواء عنده؛ فهو إمّعة، فهذا لا يتعرض له أهل الشرك ولا أئمة الردة، كما وقع لهذا المشبه وأمثاله، فإنه في وقت إقامة الله لهذا الدين انقاد لأهله، فلما تولّت الطائفة الخارجة على الإسلام صار عند كرشه يُصبِّحه ويُمسّيه، كما هو معروف من حاله، فمن كان دينه بهذه المثابة فأي طريق لأهل الباطل تركها إليه. أما من كان دينه الإسلام المبنيّ على صرف جميع العبادات لله ونفي الشرك وبغضه وبغض أهله ومعاداتهم ومقاطعتهم فهذا لا يتركهُ أهل الكفر على دينه مع القدرة عليه، كما قال تعالى: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} ، وكما أخبر الله بذلك لعن أصحاب الكهف حيث قال: {إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ولن تفلحوا إذًا أبدًا} ، بل أخبر بذلك عن جميع الكفار ٨

---

١ سورة الأحزاب الآية ٢١

١ الدرر السنة في الأجوبة النجدية ٨\٤١٩

١ سورة البقرة الآية ٢١٧

١ سورة الكهف ٢٠

حيث يقول: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [١٨]، وكذلك قال ورقة بن نوّفل للنبي -صلى الله عليه وسلم-: (يا ليتني أكون جذعًا إذ يخرجني قومك)، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أومخرجي هم؟)، فقال ورقة بن نوفل: (لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي)" اهـ. (...).[٤]

وكلام ورقة بن نوفل -رضي الله عنه- فيه حصر وقصر بل أشدّ ما يكون الحصر والقصر، ولو أردنا أن نقيس تلك الدعوات على هذا الميزان لوجدنا العجب، فهم لم يُعادَوا ولم يُؤذَوا في سبيل الله، ولم تحاربهم الجاهلية، ولم يحاربهم الطواغيت، إذًا هم ليسوا على المنهج الذي كان عليه النبي -صلى الله عليه وسلم-.

والحديث متفق عليه في صحيحي البخاري ومسلم، ذكره البخاري في كتاب (بدء الوحي) وفي كتاب (التفسير) وفي كتاب (التعبير)، وذكره مسلم في كتاب (الإيمان).

فبمفهوم المخالفة؛ الذي لا تعاديه الجاهلية والذي لا تحاربه الجاهلية والذي لا تتعرض له الجاهلية بسوء فليس على نهج النبي —عليه الصلاة والسلام- حقًا وصدقًا، والإجابة واضحة.

وفي حديث آخر حديث الفِرَق المشهور في صفة الفرقة الناجية؛ قال النبي —صلى الله عليه وسلم-: (ما أنا عليه اليوم وأصحابي) [١٨]، والضد بالضد، وبضدها تتميز الأشياء.

يقول ابن حجر في شرحه لحديث ورقة كما في (فتح الباري): "فَذَكَرَ وَرَقَةُ أَنَّ الْعِلَّةَ فِي ذَلِكَ مَجِيئُهُ لَهُمْ بِالِانْتِقَالِ عَنْ مَأْلُوفِهِمْ، وَلِأَنَّهُ عَلِمَ مِنَ الْكُتُبِ أَنَّهُمْ لَا يُجِيبُونَهُ إِلَى ذَلِكَ وَأَنَّهُ يَلْزَمُهُ لِذَلِكَ مُنَابَذَتُهُمْ وَمُعَانَدَتُهُمْ فَتَنْشَأُ الْعَدَاوَةُ مِنْ ثَمَّ." اهـ. (...).[١٨٦]

---

[١] سورة إبراهيم الآية ١٨

[١] لم أجده ونقلت نص الكلام كما نقله الشيخ المهاجر.

[١] (المستدرك على الصحيحين) للحاكم (٤٤٤).

[١] كتاب (فتح الباري شرح صحيح البخاري) للإمام ابن حجر العسقلاني ٢٦\١

ونفس الصورة تحصل اليوم، فيسمع منك البعض الكلام فيتهجم، ويظن أنك جئت بدين جديد لم ينزل به الله من السلطان، ويشمئز قلبه –عياذًا بالله– من هذا الدين الصراح؛ لأنك جئت بما يخالف مألوفاته، وجئت بما يخالف عاداته، وجئت بما يخالف ما درج ونشأ وشبّ عليه.

كما حالنا اليوم مع هؤلاء القوم الذي لا ينصفوننا من أنفسهم فيقولون لنا: "من أين جئتم بهذا الكلام؟"، والمسائل كلها مسلّمات في دين الله، وكلّها من أقاويل الأئمة الثقات الذي يدّعون هم الانتساب إليهم، ولكن الإنسان إذا رانت على قلبه الشهوات والشبهات فلا يرى الحق وإن كان الحق أبلج كالشمس في رابعة النهار، كما قال الشاعر:

قد تُنكِر العينُ ضوءَ الشّمسَ من رَمَدٍ ويُنكر الفَمُ طعمَ الماءِ من سَقَمِ

استكمال الحديث عن المقدمة الرابعة: إدراك الجاهلية لخطر عقيدة الولاء البراء وسعيها للالتقاء مع أصحاب الدعوة.

(......) نضيف نقطة جديدة توضح هذه المسألة؛لأن هذه المسألة تعتبر حجر الأساس في فهمنا للجاهلية المعاصرة، واختلاط المفاهيم وعدم اتضاح الرؤية في هذه المسألة سبّب لدى الكثيرين غبشًا في التصور، والذي انعكس بصورة تلقائية بغبش في السلوك والتصرفات وفي المواقف التي يجب أن تتخذ تجاه هذه الجاهلية.

فنقول: الجاهلية تُدرك تمامًا أن المعيار الحقيقي والترجمة العملية لهذا الدين إنّما يتحول لواقع عمليّ يحياه ويعيشه المسلم ويمارسه في كل تصرفاته وفي كل مواقفه التي يجب أن يَقِفَهَا، ولذا فالجاهلية لا ترفض الدين مطلقًا، بل هي –على التحقيق– ترحب بصور كثيرة وبأشكال شتّى من الدين ومن الإسلام؛ لأنه دين مُبَعَّض وإسلام مشوه محرّف منقوص، يتفق أول ما يتفق مع ما تراه الجاهلية نفسها ولذا فهي تسعى إلى تحقيقه في ميادين كثيرة، والواقع خير شاهد.

أمّا الذي ترفضه وتقف أمامه موقفًا عدائيًا عقائديًّا من منطلق عقدي لا يحتمل المناقشة فهو دين الحق، دين الله الخالص الذي يأبى أن يختلط بأي شائبة من شوائب الجاهلية، أمّا الدين المبتور المشوّه المنقوص –فهو على التحقيق– تسعى إلى تطبيقه بل إلى نشره بين الناس.

فالجاهلية تدرك تمامًا -بل ربما أكثر من بعض المتمسّحين بهذا الدين- أنّ حقيقة الإسلام الذي بُعث به جميع الأنبياء والمرسلين لا تتمثل إلا في الواقع العمليّ، ولا يظهر الإسلام بمحاسنه الحقيقية -قلبًا وقالبًا- إلا في الواقع العملي، ومن ثمّ فهي تحول باذلةً كل ما تملك بين هذا الواقع العملي وبين الناس، والبديل هو العرض الناقص الذي يشبع ما في النفوس من ميل فطريّ للإسلام وللدين، وفي نفس الوقت تحقّق لها ما تريده من استمرار تلك الصروح الباطلة، ومن استمرار تلك الأفعال التي ما أنزل الله بها من سلطان، والتي ترتكز على التبعيض لمعنى التوحيد ولمعنى (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

وهي تعرف أن هذا التبعيض لا يمثل عليها أي خطورة ولا أي ضرر، هي تعرف كذلك أن هذا التبعيض وأن هذا العرض المبتور الناقص لا يستطيع مهما بذل في سبيله ومهما بذل من أجله أصحابه أن يقتلع جذور الجاهلية، ولا يستطيع أن يدك صروحها وأن يهدّم حصونها، ومن ثمّ فهي ترضى به وترحب وتفتح له المجال، بل تسانده وتساعده وتدعم وجوده وتساعد أصحابه ورؤوس منهجه.

النقطة الثانية: أن هذا المنهج المبعَّض يخدم الجاهلية من وجه آخر؛ وهو أنه يُضفي عليها الشرعية التي تحتاج إليه في مخاطبتها للعوام، فهذه الشرعية تقطع كل لسان وتقف حجر عثرة -بل هي العقبة الأولى الكؤود- بين الدعاة المخلصين وبين الحديث عن تلك الجاهلة وعن ما تحمله في طياتها من شرك وكفر وردة؛ لأن بين ثنياها من يصبغون عليه ثوب الشرعية وثوب الدين وثوب الإسلام، مما يزيد تلك الصورة غبشًا واختلاطًا وتدليسًا.

وبناءً على كل هذا نجد أن الجاهلية في سبيل تحقيق هذه الأمور تبذل كل ما لديها وتحاول بشتّى الوسائل والسبل أن تحرف الدعاة عن ملتهم الحقيقية، وأن تحرف الدعاة عن جادة الطريق، وعن المعنى الحقيقي للدعوة، وعن المعنى الحقيقي للصدع بـ (لا إله إلا الله محمد رسول الله)؛ أي تريد منهم أن يبتعدوا عن الترجمة العملية للتوحيد والإيمان، أي تريد منهم أن يبتعدوا عن المعيار الحقيقي للتمسك بهذا الدين، ثم بعد هذا لهم ما يشاءون، ولهم ما يريدون، ولن تحول بينهم وبين أي رغبة يسعون إلى نيلها وتحقيقيها.

وهي في ذلك تلجأ إلى وسائل غاية في الخبث، وغاية في المكر والخداع، وغاية في التمويه على عباد الله المؤمنين، ففتحت المجالات المتعددة إلى الدعوة والإرشاد والتدريس والتعليم والمحاضرات والندوات والمؤتمرات، وتفتح لهم كذلك المجالات الاجتماعية والمجالات الاقتصادية بل والمجالات السياسية، فليس هناك أي خطر في مشاركتهم لها في الحكم

ومن تقلدهم لبعض المناصب والوزارات، بل هذا هو عين ما تريد؛ أن يكون في الحكومة أصحاب عمائم ولحى يصبغون عليها الشرعية، فإذا تكلم متكلم يكون الرد جاهزًا مكممًا لكل فاهٍ يريد أن يبن للناس الحق ويريد أن يبيّن للناس عمق هذا التدليس والتلبيس فلا يستطيع؛ لأن هناك من يصبغون على تلك الجاهلية ثوب الشرعية وثوب الإسلام، فتستمر الجاهلية وتضرب في جذورها في أطراف العباد والبلاد بدون نكير وبدون تبيين لتلك المعايب وتلك المصائب.

الأمر الآخر أنها تحاول كذلك باذلةً أكبر ما لديها أن تلتقي مع أصحاب الدعوات ولو في جزئية واحدة، هذا يرضيها بدايةً، فتبذل محاولات مستميتة، وهذا الالتقاء مع أصحاب الدعوات ومع الإسلام ولو في جزئية واحدة أُمنية عظيمة لهم، فهم على استعداد أن يبذلوا في سبيل تحقيقها كل غال ونفيس؛ لأن العاقبة بهذا تكون لهم حتمًا ولا بد.

فالذي يلتقي مع تلك الجاهلية لا بد أن يتخلى عن دينه بذلك المقدار الذي التقى فيه مع تلك الجاهلية، وهم يعرفون ذلك أشد المعرفة. نظرة الخليط؛ فأنت لا تستطيع أن تلتقي معهم إلا أن تتخلى عن جزء من دينك، وهم على استعداد أيضًا أن يتنازلوا عن جزء من باطلهم في سبيل أن يلتقوا معك، وهذه المسألة لا تمثل أي غضاضة عندهم، بل ويتركون الكثير من باطلهم، وهذا الذي تركوه لا يمس جوهر صرح الجاهلية الذي قاموا على أساسه وهو أن العبودية ليست لله.

فهم الرابح الوحيد في هذه الصفقة الخاسرة؛ لأنهم استطاعوا أن يجعلوا الدعاة يتنازلون عن قدر من دينهم، وإن كان هذا القدر في البداية قدرًا صغيرًا، ولكنهم يرضون به لأن الذي يستمرئ التنازلات والذي يرضى أن يُداهن في عقيدته فلن يتوقف، والتنازلات كما عبّر أحدهم مثل (زحليقة) الأطفال؛ فما أن يرتقي الطفل أعلاها إلّا ويجد نفسه في أسفلها. هذه سنة كونيّة وعقوبة شرعية كتبها الله على كل من يتنازل عن عقيدته، وعلى كل من يجعل عقيدة (لا إله إلا الله) مكانًا للمساومات والتنازلات، وهم يعرفون هذه الحقيقة معرفة يقينية، ولذلك يسعون بكل قوة أن يلتقوا مع أصحاب الدعوات ولو في جزئية صغيرة، فبدايةً هم الرابحون، ويعرفون أن العاقبة ستكون لهم، لأن الانحراف عن جادة هذا الطريقة –وإن كان في البداية انحرافًا صغيرًا– إلا أنه في النهاية يكون أعمق وأكبر، وأبعد عن النصر وعن التمكين، سنة كتبها الله عن كل من يساوم عن هذا الدين.

فالانحراف يكون في البداية انحرافًا صغيرًا، أو هو كذلك في ظن أصحابه، وأنه يحقق لهم بعض المصالح، فمن أجل تلك المصالح يتنازلون عن أساسيات العقيدة، وهذا الانحراف الصغير مثل الزاوية؛ يكون في البداية صغيرًا ولكن مع مرور الزمن ومع السير في الطريق يزداد الانحراف، فتجد بين الواقع الذي يعيشه الداعية وبين الهدف الذي تحرك من أجله والنتائج التي يؤمن بها ويتحرك من أجلها بونًا شاسعًا، وهذه نظرية هندسية معروفة.

والدين الإسلامي لا يقبل الانحراف الصغير ويرفضه بشدة، فما بالك بالانحراف الكبير في أصل الأصول في عقيدة التوحيد، فهذا السبب الذي يجعل الجاهلية تحاول الالتقاء مع أصحاب الدعوات.

الثانية: أنهم إذا التقوا مع أصحاب الدعوات يصبح الفريقان في خندق واحد، يصبح بين الفريقين الذين هم في الأصل أصحاب عداوة وبغضاء فيما بينهما، يصبح لديهما قواسم مشتركة وصاروا في خندق واحد، فتصبح المصالح مشتركة بين الفريقين وإن اختلفوا في المبادئ والأسس التي تصبح مبادئ نظرية وليس هناك أي فرق بين هؤلاء وهؤلاء.

وفي هذه الصورة لا يصبح أدنى معنى ولو بسيط للموالاة والمعاداة، ولو تكلم أحدهم عن ما مع الجاهلية من الباطل فلا يقبل كلامه وهو يجلس معهم ويشاركهم في كل شيء، هذا إن لم نقل أنه أصبح جزءًا منهم، المسألة تحمل في طياتها شتى وكل أنواع التناقض.

فالجاهلية -كما قلنا- تدرك هذه المعاني إدراكًا أفضل من بعض المسلمين، ولذلك يسعون لسحب المسلمين إليهم، وإن أعطوهم ما يريدون وإن تنازلوا لهم عن كثير من الأمور، وإن تنازلوا لهم عن الحكومات في بعض البلدان، فهؤلاء لا يمثلون لهم أي غضاضة، لأنهم دين محرّف، دين لا يمثل العبودية الحقّة لله رب السموات والأرض.

فكل هذا لا يمثل لهم أي غضاضة لأنهم يعرفون أن تلك الصورة ليس هي الصورة التي ستقتلع الجاهلية، ولست الصورة التي ستدك صروح الباطل، وليست تلك الصورة التي ستهد معول الكفر والردة وتقيم على أنقاضها معاول الإيمان والتوحيد، ومن ثمّ فهم لا يخافون منها، ولا يرون غضاضة لو تعاملوا معها؛ لأنهم يعرفون أن الانحراف البسيط يمثل انحرافًا أبعد عن النصر والتمكين.

واستمع إلى تلك الكلمات البسيطة الرائعة التي توضح لنا تلك الحقيقة للإمام الألوسي في شرحه لمسائل الجاهلية التي خالف فيها النبي –صلى الله عليه وسلم– أهل الجاهلية التي ذكرها شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، يقول الإمام الألوسي وهو يتكلم عن طبيعة العلاقة بين المؤمنين وبين العداوة والحرب بين المؤمنين والكافرين:

"فإنَّ أتباع النَّبِيّ –صلى الله عليه وسلم– إذا قاموا بعُهودِهِ ووَصاياهُ، نَصَرَهُمُ الله وأظْهَرَهُمْ على المُخالِفينَ لَه، فإذا ضَيَّعوا عُهودهُ ظَهَرَ أُولئِكَ عَليهم. فمَدارُ النَّصرِ والظهورِ مَعَ مُتابَعَةِ النَّبِي –صلى الله عليه وسلم– وُجودًا وعَدَمًا مِن غير سَبَبٍ يُزاحم ذلك... فهذا الاستقراءُ والتَّتَبّعُ يُبينُ أنَّ نَصْرَ الله وإظهارَه هو بسببِ اتّباعِ النَّبِيّ." اهـ. (...). [٧]

ونحن رأينا كيف كان منهجه مع الجاهلية الأولى في زمن الاستضعاف، فاتّباع نهج النبي –صلى الله عليه وسلم– هو سبب الانتصار على المشركين، وكل حكم يدور مع عِلّته، فإذا وُجدت العلة وُجد الحكم وإذا تخلفت العلة تخلف الحكم، إذا وجدت المتابعة الحقيقية وجد النصر وإن تأخر وإن كان فيه ابتلاء، بل هذا من العلامات التي تعرفك أنك على الجادة الصحيحة، وإذا تخلف الاتباع فاعلم أنه الخسران الكبير في الدنيا والآخرة. وإن اغتررت ببعض المناصب وبالمحاضرات والندوات والدعوة، فهذه الأمور من السهل أن تقدمها لك الجاهلية، بل تقدمها لك مسارعةً مختارة، حتى تجذبك إليها وحتى تصرفك عن دعوة الأنبياء والمرسلين.

واستمع لهذه السورة الصغيرة والتي يحفظها الجميع، سورة البراءة من الشرك، ونحن لنا وقفة منفصلة مع هذه السورة إلا أننا اليوم نأخذ ما يناسب هذا المقام، وهو حرص الجاهلية بل ومسارعتها ومسابقتها على الالتقاء مع الجاهلية ولو في جزئية واحدة، يقول تعالى:

{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)} . [٨] [٨] [١]

---

[١] كتاب (فصل الخطاب في شرح مسائل الجاهلية) للشيخ محمود شكري الألوسي، ط\ محب الدين الخطيب، ١\٢٥٨

[١] سورة الكافرون.

وسبب النزول معروف عند الجميع، الجاهلية القديمة أرادت أن تلتقي مع الإسلام في منتصف الطريق، فيشتركون هم وهو فيها، ومن ثمّ يكونون القاعدة العريضة التي نسمع عنها الآن، واستمع لسيد –رحمه الله– وهو يتكلم عن تلك السورة في ظلاله:

"فلما جاءهم محمد– صلى الله عليه وسلم– يقول: إن دينه هو دين إبراهيم– عليه السلام– قالوا: نحن على دين إبراهيم فما حاجتنا إذن إلى ترك ما نحن عليه واتباع محمد؟! وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع الرسول– صلى الله عليه وسلم– خطة وسطًا بينهم وبينه وعرضوا عليه أن يسجد لآلهتهم مقابل أن يسجدوا هم لإلهه! وأن يسكت عن عيب آلهتهم وعبادتهم، وله فيهم وعليهم ما يشترط! ولعل اختلاط تصوراتهم، واعترافهم بالله مع عبادة آلهة أخرى معه.. لعل هذا كان يشعرهم أن المسافة بينهم وبين محمد قريبة، يمكن التفاهم عليها، بقسمة البلد بلدين، والالتقاء في منتصف الطريق، مع بعض الترضيات الشخصية! ولحسم هذه الشبهة، وقطع الطريق على المحاولة، والمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة، ومنهج ومنهج، وتصور وتصور، وطريق وطريق.. نزلت هذه السورة. بهذا الجزم. وبهذا التوكيد. وبهذا التكرار. لتنهي كل قول، وتقطع كل مساومة وتفرق نهائيًا بين التوحيد والشرك، وتقيم المعالم واضحة، لا تقبل المساومة والجدل في قليل ولا كثير." اهـ. (......).[٩] [٨] [١]

وبالمثال يتضح المقال؛ في مجلس الأمّة في دولة الكويت، –يعني من كبر الكويت سمّوه مجلس الأمةّ وكلهم لو نزلوا في فندق لوسعهم–، في مجلس الأمة ترى بعض الطيبين تحت قبة البرلمان يتكلمون بمنتهى الحماسة وبمنتهى الغضب وبقوة ينكرون ويصرخون على بعض المنكرات البسيطة في المجتمع، وهي بجانب الشرك الأكبر طفيفة، فيصرون على محاكمة وزير التعليم على سبيل المثال، ومعركة طويلة جدًا دارت بين الإسلاميين وبين العلمانيين تحت قبّة البرلمان من أجل إخضاع وزير التعليم للتحقيق، حتى انتهت بالنصر والظفر لهم فنقلوه.

مرة أخرى حرب ضروس من أجل تغيير وزيرة التربية التي تدعو الناس للشذوذ الجنسي على الصفحات والمجلات، فتراهم يتكلمون بمنتهى الغضب واحمرار. أو عن هذا الدكتور الذي يدعو إلى الإباحية، وكل هذه الأمور في دائرة المعاصي وفي نفس الوقت لا يتكلم واحد من هؤلاء الأساتذة الفضلاء ببنت شفاه عن الكفر الذي يخيم على البلاد

---

[١] **(في ظلال القرآن) لسيد قطب رحمه الله ٦\٣٩٩٦**

ويحكم العباد، ولو بالنكير في قبّة البرلمان، بل ما دخلوا قبة البرلمان إلا بعد أن أقسموا القسم الدستوري، ونذكر لكم نص القسم الدستوري من الدستور الكويتي نفسه.

في المادة (٩٣) من الدستور الكويتي: (قسم أعضاء مجلس الأمة قبل تولي أعمالهم؛ أقسم بالله العظيم أن أكون مخلصًا للوطن والأمير وأن أحترم الدستور وقوانين الدولة).

فاستمع لهذا القسم وقارن بينه وبين الدين الممسوخ الذي تراه تحت قبّة البرلمان، وكيف أن الجاهلية تسمح لهم أن يفعلوا ما يشاؤون من غضب ومن نكير، لأن كل هذا –في الحقيقة– لا يمسّ ولا يؤثر على الجاهليّة.

وهذا هو القسم الذي لا يستطع أحدهم أن يدخل قبّة البرلمان قبل أن يُقسم عليه، فهذا هي الانتخابات التي يهرولون إليها، والتي صرّح أحدهم أنها جهاد في سبيل الله، فهل أحد يوجد أحد في قلبه ذرة من فطرة فضلًا عن دين يقسم هذا القسم، وبعد ذلك الجاهلية ليس عندها أي إشكال أن يغضب وينكر ويصرخ ويضرب بيده على الطاولة ويرعد ويتكلم عن المنكرات والمعاصي، أما صرح الجاهلية الأساسي ومعنى العبودية لله ومعنى (لا إله إلا الله) فلا أحد يستطيع أن يتكلم بكلمة واحدة.

وفي نفس الدستور في المادة (٥١): (السلطة التشريعية يتولّاها الأمير ومجلس الأمة وفقًا للدستور)، فهل هناك كفر أكبر من هذا الكفر؟ أن تعطى السلطة التشريعية –التي هي أبرز خصائص المولى– للأمير ومجلس الأمة، فهذا هو الدستور المعظم الذي يقسم على احترامه، وهذا هو الأمير المبجل الذي يُقْسَم على طاعته من دون الله العظيم. ثمّ الدعوة مفتوحة والمحاضرات والجمعيات الخيرية مفتوحة، وكذلك الكلام على المنكرات، والكلام على العلمانيين، والكلام على الاشتراكيين، فماذا يضر الجاهلية لو ظلت مئات السنوات على هذه الحالة؟ فهذا لا يضرها بأي شيء.

وفي المادة (٥٤): (ذات الأمير مصونة لا تُمس)، فذات الأمير أقدس عندهم من ذات المولى –عزّ وجل– وليس النكير على العلمانيين فهذا دينهم وإنما النكير على الإسلاميين الذي يساهمون –جهلًا أو عمدًا– في هذا الخلط وفي هذا التلبيس.

وقد نشرت (كويت تايمز) كراكاتير يسخر بمنتهى الوضوح عن الذات الإلهية، وعندما ارتدّ الكويتي (قنبر) لم يستطع أحد أن يتعرض له، وعندما شاعت الإشاعات أن الإسلاميين تعرضوا له أو أرادوا أن يتعرضوا له نشرت وزارة الخارجية بيانًا مفصلًا تتبرأ من ذلك التطرف وذلك الإرهاب، وأصدرت البيان إلى بلجيكا إلى مجلس أوروبا الموحد.

وفي نفس الوقت يقولون في المادة (٣٥): (حرية الاعتقاد مطلقة وتحمي الدولة حرية القيام بشرائع الأديان)، فعندهم ذات الأمير مصونة لا تمس وذات الله وذات رسوله وذات الإسلام لا بأس بأن تتعرض لها، هذا هو الدستور الذي يُقسم على احترامه والذي يُعمل به!

فعندما تتكلم عن المنكرات والمعاصي ليس عندهم أي إشكال، وهذا خلل في ترتيب الأولويات، فهذه الأمور هي من أصل الأصول الذي من ضيعه فلن يُتقبل منه أي شيء بعد ذلك، فعندهم خلل في الترتيب؛ تركوا أصل الإيمان وتمسكوا بالإيمان الواجب المستحب، والجاهلية ليس عندها أي اعتراض على هذه الصورة، بل تفتح لك صدورها، بل تساعدك وتدعمك، وهذا الذي يحصل الآن بالفعل. وكل أدرى بواقعه.

المادة (٤): (الكويت إمارة وراثيّة في ذرية مبارك الصباح)، فلينعم الذي يشاركونهم انتخاباتهم وبرلماناتهم ومجالسهم، فلينعموا بهذا الدين، وليقارنوا ما هم عليه بما كان عليه النبي –صلى الله عليه وسلم– مع سادة قريش في زمن الاستضعاف، وما كان عليه إبراهيم –عليه السلام– وقومه، وما كان عليه سائر الأنبياء والمرسلين من لدُن آدم وحتى محمد –صلى الله عليهم وسلم– من تمسك بهذه العقيدة، وليقارنوا بين حالهم وبين حال هؤلاء المبعدين المضطهدين المطاردين الذين تُملأ بهم السجون، والذي يُفتنون صباح مساء عن دينهم، وقارن أنت بعقلك بين هؤلاء وبين هؤلاء، وتأمل لماذا يقابل هؤلاء بتلك المقابلة ولماذا يقابل أولئك بتلك المقابلة؟ وتأمل بعقل، فوالله إن المسألة أوضح من الشمس.

والله ما استويا ولن يتلاقيا	**حتى تَشيبَ مفارِقُ الغربانِ**
شتّان بين الحالتين فإن تُرِد	**جمعًا فما الضّدانِ يجتمعانِ**

ولكنها الشبه والغبش، كما قال أحدهم: يقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسنًا ما ليس بحسن، يرى الديك ويظنه حمارًا.

يقول سيد في تفسير لسورة (الكافرون) وهو يبرر لماذا تذهب الجاهلية للنبي —صلى الله عليه وسلم– طائعةً مختارةً وتطلب منه أن يلتقي معها في منتصف الطريق، يقول –رحمه الله–:

"لعل هذا كان يشعرهم أن المسافة بينهم وبين محمد قريبة، يمكن التفاهم عليها، بقسمة البلد بلدين، والالتقاء في منتصف الطريق مع بعض الترضيات الشخصية! ولحسم هذه الشبهة، وقطع الطريق على المحاولة، والمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة، ومنهج ومنهج، وتصور وتصور، وطريق وطريق.. نزلت هذه السورة. بهذا الجزم. وبهذا التوكيد. وبهذا التكرار. لتنهي كل قول، وتقطع كل مساومة وتفرق نهائيًا بين التوحيد والشرك، وتقيم المعالم واضحة، لا تقبل المساومة والجدل في قليل ولا كثير:" اهـ (......).[١]

واليوم تجري نفس المحاولة ونفس القسمة ولكن قسمة القوم قديمًا كانت قسمة زمنيّة؛ فقالوا نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة، أمّا اليوم فالقسمة موضوعية، فبعض الأمور لكم وبعض الأمور لنا. والقسمة هي نفس القسمة، والمنطلق هو نفس المنطبق، والتصور هو نفس التصور، بدون تغيير يُذكر.

واستمع لآية أخرى في كتاب الله تبين لك تلك المحاولات المستميتة مع الجاهلية للالتقاء مع أصحاب الحق والدعوة، يقول تعالى في السورة المكية سورة (القلم): {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ}[١] ؛ فهم أحبوا هذا وتمنوه وسارعوا إليه، بذلوا في سبيله كل ما يملكوه ولو أن يتنازلوا عن بعض باطلهم، والمسكين يظنّ أنه هو الذي استطاع أن يخادعهم، ولو قارن هو بين ما يفعل معه وبين ما يفعل مع غيره لعلم أن المسألة فيها مساومة على الدين وعلى العقيدة.

يقول سيد –رحمه الله–: "إنهم على استعداد للتخلي عن الكثير منها في مقابل أن يتخلى هو عن بعض ما يدعوهم إليه! على استعداد أن يُدهنوا ويلينوا ويحافظوا فقط على ظاهر الأمر لكي يُدهن هو لهم ويلين.. فهم ليسوا أصحاب عقيدة يؤمنون بأنها الحق، وإنما هم أصحاب ظواهر يهمهم أن يستروها: {فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ. وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ

---

[١] (في ظلال القرآن) لسيد قطب –رحمه الله– ٣٩٩٦\٦

[١] سورة القلم الآية ٩.

فَيُدْهِنُونَ}، فهي المساومة إذن، والالتقاء في منتصف الطريق. كما يفعلون في التجارة. وفرق بين الاعتقاد والتجارة كبير! فصاحب العقيدة لا يتخلى عن شيء منها لأن الصغير منها كالكبير. بل ليس في العقيدة صغير وكبير. إنها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء. لا يطيع فيها صاحبها أحدًا، ولا يتخلى عن شيء منها أبدًا. وما كان يمكن أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق، ولا أن يلتقيا في أي طريق." اهـ (...). ٢ ٩

يقول الشيخ سليمان بن سحمان في كتابه (كشف الشبهتين) صـ ٣٣ معلقًا عن محاولات الجاهلية المستميتة للالتقاء مع أهل الحق، وعن سبب الجاهلية الرئيسي للالتقاء مع أهل الحق، يقول –رحمه الله–:

"مبادأة أعداء الله بالعداوة والبغضاء هو الواجب وترك ذلك من المداهنة، وللشيطان وأعوانه غرض في الطائفتين قال تعالى: {وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ} " اهـ، لأنها وسيلة إلى[٣] السلْم ووضع الحرب بين الطائفتين، لو تحقق هذا الالتقاء كما قلنا فلن يبقى بعد ذلك معنى للموالاة والمعاداة، ولن يبقى بعد ذلك معنى لإعلانك الحرب من جانبك على تلك الجاهلية، بعد أن تلتقي معهم وتضع يديك في أيديهم، فهذا تناقض بيّن صارخ، ومن ثمّ يفقد كلامك مصداقيته أمام الناس، وهذا الذي تعرفه الجاهلية وتسعى إليه حتى تحطم صورة الحق وصورة أتباعه بين الناس، فينقطع بذلك الطريق عليهم بالنكير عليها، فضلًا عن هدمها ومحاولة إزالتها من الوجود. ١ ١

واستمع لآية أخرى من كتاب الله، آية عجيبة في هذا المقام، تبين محاولات الجاهلية المستميتة لصرف الدعاة عن جادة الطريق والالتقاء معهم ولو في القليل، قال تعالى: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (*) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (*) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا} . ٥ ٩ ١

وهذه الآيات تستحق منّا وقفة طويلة، وكل مقطع منها مليء بالإعراب فيما يتعلق بواقعنا، والقرآن لكلّ زمان ومكان.

---

[١] (في ظلال القرآن) لسيد قطب –رحمه الله– ٣٦٥٨\٦

[١] سورة القلم الآية ٩.

[١] كتاب (كشف الشبهتين) للشيخ سليمان بن سحمان صـ ٣٣، نقلنا نص الكلام لا نص ما قال الشيخ المهاجر.

[١] سورة الإسراء الآيات ٧٣–٧٥

أول مقطع من الآيات يُبيّن استماتة المشركين في محاولة أن يصرفوا النبي –صلى الله عليه وسلم– ولو قليلًا عن الدعوة، وهذه الاستماتة مع النبي المعصوم المؤيد بالوحي، خاتم الأنبياء، سيد الخلق، محمد –صلى الله عليه وسلم–، فكانوا يستميتون معه مع كل هذه الأوصاف التي عنده، فما بالكم باستماتتهم بمن هو دونه؟ ستكون أشد وأنكى، ويسعون إليها بكل طاقتهم.

مع النبي –عليه الصلاة والسلام– الذي يعرفون أنهم أن يمسّوا دينه بشعرة أبعد لهم من الشمس أي يشعلوا منها شعلة، ورغم ذلك يحاولون فما بالك بالمحاولة مع غيره؟

وفي نفس الوقت يقول الله تعالى للنبي –عليه الصلاة والسلام–: {وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا}؛ فالنبي المعصوم المؤيد بالوحي لولا تثبيت الله إياه ولولا عصمة الله إياه لركن إليهم شيئًا قليلًا، فما بالك باستجابة غير المعصوم؟ وما بالك باستجابة من يظن أن العقل كل العقل في فعله؟ وما بالك باستجابة من استقلّ برأيه؟ ومن ابتعد بعدًا بينًا عن كتاب الله وسنة نبيه –صلى الله عليه وسلم–؟ لاشك أن استجابتهم ستكون أشد وأسرع وأن الفتنة منه بهم أعظم بكثير.

الوقفة الثانية: لماذا كل هذه المحاولات من الجاهلية؟ الجواب من الآية الكريمة: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ}، أي من أجل فتنته وفتنة أتباعه إلى يوم الدين عن هذا المنهج الذي أُنزل إليه، ولو في القليل.

كما جاء الوعيد الشديد للنبي من أجل الفتنة عن الشيء القليل، أما اليوم فالتنازل يكون عن المعتقد والشرائع ومعنى التوحيد ومعنى لا إله إلا الله، كل هذه الأمور تم التنازل عنها من أجل بعض الأمور الموهومة، ثم يقول: "لمصلحة الدعوة"، فهل بقي أي معنى للدعوة؟

يقول الشيخ السعدي في تفسيره لتلك الآيات: "على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجيء بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك." [1] اهـ. واليوم القوم تركوا الأصول قبل الفروع من أجل أن يلتقوا مع الجاهلية.

---

[1] تفسر السعيد (تيسير الكريم الرحمن) ١\٤٦٣.

الوقفة الثالثة: بيّن تعالى أن النبي لو ركن إليهم –حاشاه صلى الله عليه وسلم– لاتخذوه خليلًا، وصار من المقربين وممن تتسع لهم المجالس والصدور، وتفتح له المحافل، يتبوءون أعلى المناصب، ويُغدق عليه المال والجاه وكل المساعدات، وبالفعل اتخذت الجاهلية القوم اليوم أخلاء بل وأعوان، وهذا المكر الجاهلية الكبار كما قال تعالى: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} . [٧] [٩] [١]

رغم أن هذا الركون من النبي –صلى الله عليه وسلم– لو حدث وحاشا لكان ركونًا قليلًا، وسيأتي معنا تفسير أهل العلم للركون في قوله تعالى: {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ} [٩]، وسيأتي معنا أثر سفيان[٥] الثوري في أن هذا الركون يدخل فيه من لاق لهم دواة أو برى لهم قلمًا، وقارن بين هذا المعنى وبين ما نحن فيها من انغماس فيهم إلى الآذان.

الحق مر، والكلام فيه قاسٍ وشديد، ولكن هذا هو الدين، فمن شاء فليمد يده، ومن شاء فليُحجم.

يقول الشيخ السعدي في تفسيره: "{لاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا} أي حبيبًا صفيًا، أعز عليهم من أحبابهم" [٩] اهـ. وهم بالأمس كانوا يحاربونه ويعادونه وينابذونه العداء ويتمنّون أن يدركوه فيفتكوا به، ولكن يوم أن تتنازل يتخذوك حبيبًا.

الوقفة الرابعة: قوله تعالى: {إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا}، والحديث والخطاب لأشرف الخلق، للخليل وللحبيب محمد –صلى الله عليه وعلى آله وسلم–.

فتحاولون أن تجدوا أي وسيلة لأسباب السماوات فتجدوها قد قطعت عنكم ، فتحاولون أن تجدوا أي وسيلة لأسباب الأرض فتجدوها قد قطعت عنكم، وإن ظننتم أنكم وصلتم للسؤدد وللنصر والتمكين، وإن ظننتم أنكم حققتم مكاسب كبيرة جدًا.

---

[١] سورة إبراهيم الآية ٤٦

[١] سورة هود الآية ١١٣

[١] تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن) ١\٤٦٣

وهذا الخطاب كان للنبي –عليه الصلاة والسلام– فما بالك بمن هو دونه؟ وما بالك بالقرون التي قال عنها النبي: (لاَ يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ) [٢] ، وهذا الوعيد في الركون القليل فما بالك بهذا الانغماس حتى الآذان في الجاهلية؟

وكيف بمن سارع فيهم واختلط بهم وشاركهم في احتفالاتهم وأعيادهم وفي قوانينهم وتشريعاتهم وفي برلماناتهم وانتخاباتهم، بل وفي وزاراتهم وحكوماتهم؟

بل كيف بمن دافع عنهم ونافح؟

بل كيف بمن كان عونًا لهم وظهيرًا على عباد الله الموحدين؟

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في كتابه (أوثق عرى الإيمان) كما جاء في (الجامع الفريد) صـ ٣٦٥: " فإذا كان هذا الخطاب لأشرف مخلوق –صلوات الله وسلامه عليه–، فكيف بغيره؟" [١] اهـ. وهذا الكلام في الركون القليل فكيف بما نحن فيه اليوم؟

نختم بكلام سيد –رحمه الله– في تفسيره لهذه الآية:

"هذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله، هي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائمًا. محاولة إغرائهم لينحرفوا –ولو قليلًا– عن استقامة الدعوة وصلابتها. ويرضوا بالحلول الوسط التي يغرونهم بها في مقابل مغانم كثيرة. ومن حملة الدعوات من يُفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الأمر هينًا، فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه أن يترك دعوته كلية، إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق. وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة، فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها ولو بالتنازل عن جانب منها! ولكن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق. وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها ولو يسير، وفي إغفال طرف منها ولو ضئيل، لا يملك أن يقف عند ما سلم به أول مرة. لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء! (....) وأصحاب السلطان يستدرجون أصحاب الدعوات. فإذا

---

[٢] صحيح البخاري (٧٠٦٨)

[٢] انظر (الدرر السنية في الأجوبة النجدية) ٨\١٥٤.

سلموا في الجزء فقدوا هيبتهم وحصانتهم، وعرف المتسلطون أن استمرار المساومة، وارتفاع السعر ينتهيان إلى تسليم الصفقة كلها! والتسليم في جانب ولو ضئيل من جوانب الدعوة لكسب أصحاب السلطان إلى صفها هو هزيمة روحية بالاعتماد على أصحاب السلطان في نصرة الدعوة. والله وحده هو الذي يعتمد عليه المؤمنون بدعوتهم. ومتى دبّت الهزيمة في أعماق السريرة، فلن تنقلب الهزيمة نصرًا! " اهـ.[٢]

لو أردنا أن نستعرض لكم بعض التجارب المعاصرة فسترون العجب العجاب، آخر التجارب النكدة التجربة التركية لحزب (الرفاه) الإسلامي العظيم!، الذي حقّق –كما قال أحدهم– نصرًا وفتحًا لا يقل عن نصر وفتح محمد الفاتح يوم أن دخل القسطنطينية! قالوا هكذا وصدّروا فيها الصحف والمجلات، ولا نحتاج أن نتكلم عن هذه المسألة عن الناحية الشرعية ولكن انظر فقط لحالهم الآن، ولحال أربكان النجم الإسلامي!

يتربع أربكان الآن على رأس أكبر نظام طاغوتي علماني في الدول الإسلاميّة، ويعلن من أول يوم أنه متمسك بكل ما جاء به أتاتورك من الألف إلى الياء!.

فانظر لهذه التجربة والتي ستتكرر في كل دولة تنتهج هذا النهج. وهي مسألة طبيعية ليس فيها أي خلل؛ لأن الدين لا يقوم إلا على الوضوح، (إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا)[٢]، أما هذا التلون وهذا المَسخ للدين فلا يعلمه الله –عز وجل–، وسيُحرم أصحابه من البركة في الدنيا والآخرة وسيبوؤون بالخسران في الدنيا والآخرة.

أربكان هذا أول ما حقق انتصاره سارع إلى قبر أتاتورك ليخضع إليه ويخفض رأسه، وهذه كافية وحدها. الدين لا يعرف المداراة ولا يعرف المداهنة لا يعرف هذا الغبش الكثيف.

ونكرر أن هذه التجربة ستتكرر في كل بلد يصل فيه هؤلاء بهذه الطريقة التي يزعمون أنهم ينصرون فيها الإسلام، بالأمس كان يحارب (...)[٢] وحتى يصل للحكم وضَع يده في يدها، وصار يمدها في الجرائد والصحف والمجلات، فالمهم أن يصل للحكم.

---

[٢] (في ظلال القرآن) لسيد قطب –رحمه الله– ٤\٢٢٤٥

[٢] مسند الإمام أحمد (٨٣٤٨)

[٢] الاسم غير واضح.

وفي آخر مؤتمر عقدوه أخرجوا منه كل شعار لـ (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، ومنعوا كل صاحب هدي ظاهري من المشاركة، ونصبوا فيه صورة كبيرة استوعبت كل الجدار لأتاتورك، وهذا من جرائدهم التي تدافع عنهم.

وأربكان يردّد في كل صحيفة وفي كل موقف بأنه ملتزم بتلك الدولة العلمانية التي أقام دعائمها أتاتورك، فهؤلاء لا يعطوك من دنياهم إلا بقدر ما يسلخون من دينك، ورأيتم دستور الكويت، ومن قبل نقلنا بعض النصوص دستور اليمن في سلسلة (الحاكمية) لو تذكرون، ومن قبل نقلنا لكم بعض النصوص الشعرية لبعض كتاب وشعراء اليمن الذي تعطيهم الدولة وتسبغ عليك أسمى الألقاب وأعلى الجوائز التحفيزية وكل أدرى بواقعه. (.....).

الفهرس